ڤيتو
«vito»

مها المقداد - ڤيتو، قصص

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٥٥٤٨ ISBN : 978-977-798-095-1

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

ولا يجوز طبع أوإعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت إلا بموجب موافقة خطية من الناشر .

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضواتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

ڤيتو«vito»

رواية

مها المقداد

إهداء..

الحمد لله أولاً وأخيراً ؛ وكالعادة سيذهب النصيب الأكبر لروح أبي وأمي وأجدادي – رحمهم الله – وكل من تتلمذت على أيديهم، وكل مَن ساندني من إخوة وأخوات وأصدقاء وصديقات، وأضيف إهداءاً لكل من عانوا في الحب بسبب الموروثات والعادات البالية والعنصرية والاضطهاد .

المقدمة

كـما نعـرف ونعـي تمامـاً؛ أن الحـب والقبـول لا يعرفـا مـن أيـن أنـت، لايعرفـا شـكلاً ولا لونـاً ولا عرقـاً، لا يعرفـا سـوى ذلـك الاحسـاس، وذلـك الشـعور الـذي يجتـاح قلـوب المحبـين بـدون موعـد أوإشـارة أو سـابق إنـذار..

ولأننـي أكـره وأبغـض الملـل، وأكـره التفكـير بنفـس الطريقـة لحـل مشـكلة لازالـت قائمـة، ويُعـاني منهـا أغلبنـا، لـن أتحـدث عـن الحـب بالشـكل الـوردي أو الخيـالي المعهـود، والـذي نسـجنا أغلبـه مـن وحـي خيالنـا، أوبمعنـى أدق سـنعود معـاً لأرض الواقـع؛ فمـن الواضـح أننـا لم نـدرك بمـرور الزمـن أن حـب الروايـات، قـد أصبـح معظمـه لا يمـت لواقعنـا بصلـة، فلطالمـا عشـنا فيـه، وكـم رسـمنا لأنفسـنا أحبـاء مثاليـين شـكلاً وموضوعـاً، ونحـب وندخـل في علاقـات لانضـج فيهـا، بحجـة أننـا نسـعى لعلاقـة تُـرضي النـاس وتكفينـا شر ألسـنتهم..

ويصبـح تفكيرنـا منصبـاً عـلى العثـور عـن شريـك الحيـاة المثـالي، كـما كنـا نفكـر في سـن المراهقـة، والـذي لاينفـض رغـم تقدمنـا في العمـر، فكـم مـن وقـت ضيعنـاه عـلى أوهـام، ولم يتجـرأ أغلبنـا عـلى طـرح

سـبب فشـلنا الكثـير في الحـب هـذه الأيـام، ولم نبـذل جهـداً لإصـلاح علاقاتنـا في الواقـع المُعـاش، فـكل محـب يـرى أن اختيـاره كان تأقلـماً مـع الواقـع، وإنـه قـد رضي بنصـف حـب، وأنـه قـد تنـازل وجـاء عـلى نفسـه، وكبـت طموحاتـه وأمانيـه، فصرنـا كأهـل الكهـف قـد نمنـا، وذهبنـا في سُـبات، في زمـن الحـب والفـن الجميـل، وفجـأة اسـتيقظنا في عـصر السرعـة، والحـب سريـع العطـب ...

وقـد يظـن القـارئ في بدايـة قراءتـه لأول مشـهدين، أن الروايـة تتمحـور حـول العنصريـة، ولكـن المُتمحـص لـكل مشـهد ، والقـارئ الـذي يقـرأ بتركيـز وتمعـن حتـى النهايـة، سـيدرك أن الروايـة قـد تطرقـت لأكـثر مـن خمسـة عـشر موقفـاً لأسـباب عديـدة غـير العنصريـة، والتـي لا أخـشى إطلاقـاً ولا آبـه ذكرهـا في بدايـة روايتـي هـذه..

وبالطبـع ابتعـدت عـن المغـالاة والمبالغـة لأن العنصريـة في مجتمعنـا أقـل مـن المجتمعـات الأخـرى؛ فهـي موجـودة ولكـن بشـكل غـير مبـاشر؛ فمثـلاً نجـد العنصريـة عندمـا يتقـدم أحـد الشـباب للـزواج مـن إحداهـن، لكـن مـن الصعـب أن نراهـا في شـوارعنا؛ فـلا يتلفـظ شـخص لفظـة عنصريـة ويُطلقهـا في وجـه شـخص لا يعرفـه في الشـارع، خاصـةً شـوارع العاصمـة حيـث التحـضر، كـما أننـي تطرقـت بذكـر علاقـة تعرضـت لعنصريـة ولكـن الأحبـاء تجاهلوهـا وصمـدت علاقتهـم حتـى النهايـة..

واخـترتُ البـدء بالعنصريـة؛ فللعنصريـة أثـر كبـير وبالـغ في فشـل أغلـب علاقاتنـا العاطفيـة، وتحطمهـا مهـما طـال عمرهـا؛ والدليـل أن أغلـب

الرجال الذين يشترطوا الجمال الشكلي للوقوع في الحب، فيجعلون منه شرطاً أساسياً وأولياً، بمجرد أن تتعرض زوجاتهم لحادث أومرض ما يُؤثر على جمالهم، يبحثون عن غيرهن، وكذلك إذا تقدمن في العمر، وسَلَبَهن الزمان بريقهن وجمالهن مع مرور الوقت؛ فإنهم أيضاً يبحثون ويتزوجون من غيرهن تجديداً لشبابهم ؛ وتمتُعاً بالجمال الذي لطالما لهثوا وراءه فحسب؛ فلا تهمهم زوجتهم اللائي عاشروهم لعدة سنوات، لا يأبهون للذكريات حتى، كل ذلك ترسخ بسبب موروثات وعادات وتقاليد بالية ولطالما وضع المجتمع قيود وعادات لاتمت للمنطق بِصلة، لاسيما مع تراجع المستوى التعليمي والثقافي، وكما ذكر العلامة الدكتور» مصطفى محمود «أننا نخشى العيب أكثر من الحرام، وبمعنى آخر نخشى كلام الناس أكثر من رب الناس؛ فهناك عادات قد تم تعميمها، ولم يتم التغيير فيها من أجل التيسير، ومواكبة ظروف كل عصر؛ فإننا حتماً قد خلقنا لزمن غير الذي خلق فيه آباءنا وأجدادنا ...

فنجد مجتمعاتنا بعاداتها وتقاليدها البالية، تارة تُضعف موقف الرجل في الحب، فهنالك من النساء والفتيات من تحررن، لدرجة يظلمن فيها من يرغب أن يتزوج من إحداهن، وعلى النقيض نجدها في أغلب الأحوال تُضعف موقف المرأة في الحب، نظراً لأن أغلب المجتمعات العربية ذكورية، بالرغم من قوله تعالى:(أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) صدق الله العظيم.

دوماً البحث عن الجوهر هو الفارق، ولكن من يعي هذا الكلام

في مجتمع يحترم المظاهر، ويُقدر الحذاء الغالي على الشخصية التي تستحق التقدير رغم فقر الإمكانيات المادية!
فلن أتحدث اليوم يا سادة عن الحب الذي لطالما اقتصرناه على أناس محددين - بحسب المتعارف عليه، أناس ذوي إمكانيات شكلية ومادية معينة، دعونا من حب الأفلام لا سيما الأفلام الهندية والتركية المنتشرة العرض هذه الأيام، والمقاييس التي يضعوها لاختيار البطل والبطلة، والتي لاتناسب واقعنا المُعاش .. دعونا من فكرة العاشقين اللذين يتمتعا بجسدين لائقين، وملامح ينطبق عليها معايير ومواصفات الجمال العالمي، ذلك الحب الذي يكون أشبه بالشغف والرغبة الشهوانية ليس إلا، وكأننا نرغب في تمثيل وتصوير فيلم إباحي لا إنشاء علاقات سليمة، ونجد أنفسنا قد ابتعادنا عن القيمة الحقيقية للحب بإيجاد كل منا لتؤام روحه ورفيق دربه، ونجد أننا قد شوهنا مفهوم الحب الحقيقي، واستبدلناه بذلك الحب الرخيص الساخط على الخلقة، الغير متأدباً مع الخالق ...

وسنتحدث بإذن الله تعالى عن الحب من واقع حياتنا، لعلنا نرتقي ولعل علاقاتنا يسودها التكامل وتقل معدلات الخيانة، ومن ثمّ ينتج لدينا أسر مستقرة نفسياً تسعى نحومستقبل أفضل دوماً، فما فائدة الحب الذي يعرض أحدهم للألم والسخط؛ فالحب الحقيقي يملأ القلوب ويجعلها حتى وإن كانت قاسية تلين، وتصبح نابضة بحب الخير والتطلع نحوالأفضل..

ولأن لكل منا مأساته، سنحاول عرض العديد من قصص الحب

التـي تتعـرض للفشـل والمشـكلات أحيانـاً، تحـت طائلـة العـادات والتقاليـد التـي لا تمـت للديـن والمنطـق بصلـة، لا نفـع فيهـا بـل عـلى النقيـض؛ فإنهـا تـضر بعلاقاتنـا كثـيراً، فـما أصعـب العيـش بقلـب مكسـور حزيـن...

وبينـما أسـير في الطرقـات والـدروب، قابلـت العديـد مـن الوجـوه الشـاحبة المنكسرة واليائسـة، وكأن لا حـب في هـذه الحياة ينـير الوجوه، تُـرى مـا الـذي جعـل الكثـيرون يكفـرون بالحـب! حتـماً لم نصـل لتلـك الحالـة مـن فـراغ ، فكيـف لقلوبنـا أن تعمـم السـلام، وترتقـي والحـب فيهـا منعـدم!

فحـب الزوجـين ينعكـس بالإيجـاب عـلى نفسـية الصغـار وكذلـك أهليهـما، وفقدهـم إيـاه يؤثـر بالسـلب حتـماً فانعـدام الحـب يجعـل الحيـاة الزوجيـة أشـبه بالجحيـم؛ حيـث تكـثر الشـكوى ومـن ثـمّ تفسـد العلاقـات ..

والحقيقـة عندمـا شرعـت في الكتابـة، كنـت أظـن أن الحـبر قـد جـف، ولم يعـد عقـلي قـادراً عـلى تصـور أي حـدث لروايتـه، واكتشـفت أن المسـألة ليسـت متوقفـة عـلى المُخيلـة والتصويـر، فـما أكـثر أن نـروي قصصـاً يكللهـا الخيـال الـوردي، فوجـدت مـن الواقـع مـادة تحتـاج لروايـة صادقـة؛ حيـث يعجـز الكثـيرون ممـن لا يمتلكـون الجـرأة عـلى إثارتهـا، رغـم أنهـا تسـتحق أن تناقـش وتطـرح بوضـوح، فكـم عانينـا مـن مشـكلات كبـيرة، خجـلاً مـن التطـرق إليهـا، وخوفـاً مـن مواجهـة أنفسـنا بهـا، فقـد سـاد عصرنـا سـمة تزييـف الحقائـق، حتـى البخيـل يُغلـف نفسـه بالكـرم، واللئيـم المُنافـق يَدعـي أن سـبب عذابـه في هـذه

الحيـاة؛ هوطيبتـه وصراحتـه الزائدتـين ..

وكمثـال؛ أتذكـر ذلـك الموقـف العابـر والبسـيط ، حينـما كنـت ارتـاد المواصـلات العامـة ذات مـرة ، تلـك المواصـلات كـما نعلـم - موطـن للطرائـف والمواقـف العجيبـة في كثـير مـن الأحيـان ، أتذكـر منهـا ذلـك الموقـف وتلـك المـرأة التـي صعـدت إلى نفـس الحافلـة التـي كنـت اركبهـا ، وكانـت معهـا ابنتيهـا الصغيرتـين وحقائـب كثـيرة وتحتـاج لمتسـع لوضعهـا ، فجلسـت عـلى المقعـد الـذي يجلـس عليـه فرديـن فقـط ، فسـيطرت عـلى أغلبـه ، وتركـت الجـزء الضئيـل لي لأجلـس فيـه، وكان الطريـق طويـل جـداً فضـلاً عـن الزحـام ، فلـم يكـن جلـوسي هـذا مريحـاً بالمـرة ، وكنـت لأتحمـل وأُراعـي وأحـاول أن ألتمـس لهـا عـذراً، فربـما تكـون غـير قـادرة عـلى دفـع ثمـن تذكرتـين لهـا ولابنتيهـا ، ولكـن مـا آثـار اسـتفزازي عندمـا ركـزت وأمعنـت النظـر قليـلاً ، وجـدت أن هـذه المـرأة ترتـدي أفخـم الملابـس هـي وابنتيهـا ، كـما أنهـا لم تخجـل لعـدم راحتـي ، ولم تعتـذر حتـى ، واسـتغلت عـدم شـكواي رغـم أنـه مـن حقـي أن أتذمـر ، فكلـما سـنحت لهـا الفرصـة اسـتحوذت عـلى مـكان أكـبر في المقعـد ، وإزداد غيظـي منهـن وتفاقـم؛ بـل بلـغ ذروتـه، خاصـةً حينـما نادتهـا إحـدى ابنتيهـا بكلمـة (مامـي) كالأعيـان بـدلاً مـن أمـي أوماما كـما نقولهـا نحـن ..

حقيقـة الأمـر لا أعـي حتـى الآن لمـا البُخـل في هـذه التوافـه طالمـا إمتلكنـا الإمكانيـات ، وإن إلتمسـت لهـا العـذر ماديـاً ، فلـما تعيـش في دوراً غـير دورهـا ، ولمـا أصبحـت الأغلبيـة هكـذا يسـتغلون مـن يـرأف بحالتهـم ، لمـا نكـذب ونصـدق كذبتنـا! ..

هـذا مـا سـنتطرق بـإذن اللـه لطرحـه مـن خـلال هـذه الروايـة القصـيرة

أو الأقصوصة الطويلة المتواضعة ؛ وسنحاول وضع حلول ونهايات سعيدة تلائم الواقع بقدر الإمكان ، فأكثر ما يستفزني كقارئة قبل أن أكون كاتبة ، أن أقرأ عن مشكلة أو موقف مُعقد ، ولا أجد حلاً قاطعاً ، حتى وإن كان تقديم الحلول سيخل بالبناء الأدبي للقصة أو الرواية...

فما قيمة الكاتب والمفكر إذ لم يساند مجتمعه ، وينقل له خبرته من أجل حياة أفضل ، وبالطبع ذلك لا يعني أنه ليس من حق القارئ أن يقوم بإعمال عقله ؛ فإنني أدعو ٨من منبري هذا ، كل شخص أن يقوم ببرمجة أي حل يقرؤه - إن وجدت بالطبع قصة أو موقف يشبه ما يمر به من أحداث في واقعه ، بشكل يناسب حياته وظروفه ، وقد تكون الحلول التي سيتم طرحها غير كافية أو ناقصة ، فلا غضاضة من إضافة حلول جديدة ، فالكمال لله وحده، ونحن بشر نتكامل ببعضنا البعض ..

والله الموفق والمستعان

مدخل

تـدور الأحـداث داخـل حـي بسـيط يضـم فئـة كبـيرة مـن أبنـاء الطبقـة المتوسـطة، والذيـن تعرضـوا للاضطهـاد في الحـب ، وذلـك بسـبب اعتراضـات ناجمـة عـن عـادات تقاليـد وأفـكار مجتمعيـة متخلفـة سـائدة ، وأغلـب أهلـه عـلى قـدر معقـول مـن التعليـم والثقافـة للأسـف ...

وأثنـاء رحلتنـا في هـذه الحيـاة ، نمـر بالعديـد مـن التجـارب كل منـا عـلى حسـب عقليتـه ومسـاعيه وتطلعاتـه ، وتسـتوقفنا أيضـاً مواقـف ومشـاهد عـدة، سـواء تحـدث لنـا أولغيرنـا ، وقـد تكـون تلـك المشـاهد تسـتحق التأمـل والـسرد حقـاَ ..

يُرفـع السـتار تبـدأ روايتنـا بإطلالـة الجـارة العزيـزة - أم فـاروق- التـي يُقدرهـا أهـل الحـي بدرجـة لا توصـف ، لدرجـة أنهـا أصبحـت لديهـم بمثابـة الشـئ الـذي زاد عـن حـده فانقلـب ضـده ، فتلـك الجـارة العزيـزة لا تـترك فرصـة لا تتطفـل فيهـا عـلى جيرانهـا ، تسـألهم ذهابـاً

وإياباً ، وهم يقنعون أنفسهم أنها تسأل من باب الطمأنينة ليس إلا ، حتى يستطيعوا التعايش دون ضجر ، أو سخط على تطفلها وتلصصها هذا..

وبينما كانت العزيزة أم فاروق تُنادي على جارتها - أم حسين - تلك الجارة التي تُسايرها لساعات طويلة ، وتجاريها وتشاركها في سمة حُب الاستطلاع، ومعرفة أهم الأخبار وبشكل حصري قبل أي شخص قاطن معهما في نفس الحي ، وحب الدراية بخبايا الآخرين وأسرارهم ، فكانت أم حسين بمثابة تؤامة لأم فاروق في الطباع ؛ فردت أم حسين نداء جارتها ورفيقتها الغالية على الفور..
وليبدأوا أمسية النميمة المعتادة والمحببة إلى قلبيهما ، تلك الأمسية التي يحاول أهل الحي التغافل عنها رغم خطورتها، وما يترتب عليها من آثار ، لما فيها من أخبار حساسة عن الحي وأهله ، أخبار لوأُذيعت لكان آثارها على الحي أشد فتكاً من هيروشيما ، وأبلغ ضرراً من تسونامي ..
فقد كان الاستاذ يحيى يجلس على المقهى المقابل لبيت العزيزة أم فاروق ، كالعادة تجده شارداً سارحاً في خياله مُبحراً بين ذكرياته، وصوت أم كلثوم الصادر من المذياع تشدو أغنية الأطلال ، ومع الأطلال تطل ذكريات الألم الجميل ، تنبش ما بداخله من أحلام وردية ماتت ودفنت في قبر حبه القديم الجديد ...

يَا فُؤَادِي لَا تَسَلْ أَيْنَ ٱلْهَوَى كَانَ صَرْحًا مِنْ خَيَالٍ فَهَوَى
اِسْقِنِي وَٱشْرَبْ عَلَى أَطْلَالِهِ وَٱرْوِ عَنِّي طَالَمَا ٱلدَّمْعُ رَوَى
كَيْفَ ذَاكَ ٱلْحُبُّ أَمْسَى خَبَرًا وَحَدِيثًا مِنْ أَحَادِيثِ ٱلْجَوَى

ذكرى الألم الجميل

وكأن الظـروف قـد احتشـدت وتجمعـت مـن أجـل تذكـير الاسـتاذ يحيـى، فليـس لديـه ذكـرى أجمـل مـن - سـميرة - حبيبتـه سـمراء النيـل ، تلـك الفتـاة السـودانية الأصـل التـي كانـت تجمـع بـين الملامـح العربيـة والسـمرة النيليـة الأصيلـة النـيرة ..

فكانـت عيناهـا كعيـون المهـا ، وحاباهـا اللـه أنفـاً صغـيراً دقيقـاً ، يُضاهـي الأنـف الرومـاني – سـبحان اللـه – وتمتلـك كذلـك فيهـاً وقواماً، يبلغـا مـن الدقـة مـا لم تسـتطع عمليـات التجميـل نحتـه ، رغـم مـا بلغنـاه مـن تقـدم في عصرنـا الحـالي ، فقـد كانـت سـميرة زميلـة للاسـتاذ يحيـى بالجامعـة ، وبـصرف النظـر عـن مثاليـة خلقتهـا ؛ فكانـت هـي أول مـن علمتـه الحـب ، وآثـارت فيـه روح المـرح، والحـب العفـوي الطفـولي الـبرئ ..

فقـد كان حبهـما دومـاً خطـوة للأمـام ، وقـد بلـغ بهـما الحـب العـذري والاشـتياق المجـرد مـن الشـهوة ؛ أنهـا كانـت حـين تلقـاه تعانقنـه أمـام الجميـع ، وكأن الجميـع قـد تـلاشى ، وإذا تجرأنـا وسـألناها مـا الـذي

فعلتيـه أيتهـا المجنونـة؟! ، تـرد عليهـم بـكل عفويـة: (عفـواً ، فأنـا وبمنتهـى الصـدق لم ألحـظ وجودكـم) ..

كان يقودهـما الحـب دون اكـتراث لـرد فعـل مجتمعنـا ، الـذي لا يغفـر أي شـئ مهـما كانـت نيـة المخطـئ ، ورغـم معابـة باقـي الزمـلاء عـلى تلـك العلاقـة التـي تربـط بـين ذلـك الفتـى الأبيـض اللـون والفتـاة السـمراء ، لم تتزعـزع علاقتيـما لحظـةً واحـدة ..

وكانـت سـميرة تلـك الفتـاة الجميلـة الـودودة ، تذهـب عـلى الـدوام طـوال فـترة تواجدهـا بجمهوريـة مـصر العربيـة ، في زيـارات لبلـدة الاسـتاذ يحيـى ؛ حيـث كانـت تـرى حبيبهـا يحيـى فُـلاً وريحانـاً؛ فتسـقي جـذوره حبـاً ، فلطالمـا أحبتهـا أسرتـه ، فـكل محبـوب صـادق لا يختلـف أحـد عـلى حبـه ، وبـات كل شـئ في علاقتيهـما مثاليـاً ورديـاً ..
وكان الوقـت بينهـما في كل مـرة يتقابـلا معاً ، متسـعاً للتخطيط لحياتيهما بعـد التخـرج ، فقـد خططـا للـزواج وبنـاء أسرة مثاليـة ، خططـا كيـف سـيكون منزليهـما ، حتـى أسـماء أبنائهـما قـد اختاراهـا معـاً ، كل شـئ اختـير بينهـما بعنايـة وحـب بالغـين ، وعاشـا كل كلمـة في حديثيهـما وصدقاهـا ؛ حتـى القـدر صـدق فقـد أنصـت إليهـما جيـداً ، واكتفـى بمـا قـد عاشـاه في الحديـث فحسـب ..

صدمة العمر

وبشكل مفاجئ تُوَدع سميرة - يحيى ؛ حيث أن والدها ذلك الرجل السياسي ، قد تم استدعاؤه للعودة إلى البلاد إلى السودان في أمر بالغ الأهمية ، وبالفعل سافرت ولكنها قد سافرت لتلقى قضائها المحتم ، فقد تعرض والدها للاغتيال حيث فجر الإرهاب اللعين سيارته ، وكانت معه سميرة في نفس تلك السيارة التي تعرضت للحادث ، وقد أودى حادث السيارة هذا بحياة سميرة وحياة والدها ، فقد لقي مصرعيهما ..

وهنا قال القدر كلمته ، وبدأ يأخذ دوره في الحديث ، فعندما وصل الخبر ليحيى تعرض لأزمة نفسية كبيرة كادت أن تُفقده عقله، فقد جن جنونه ، ولأنه كما قالوا: (الحي أبقى من الميت) لم تيئس والدة يحيى من أن تخرجه من حالة الحزن هذه ، فطوال الوقت حاولت إيجاد بديل لسميرة ، فكانت تبحث له دوماً عن عروس ، وبعد قائمة طويلة من الفتيات ، تزوج يحيى من إحداهن، إرضاءاً لأمه ليس إلا ، وكانت الحكمة التي قد انتهجها الاستاذ يحيى وسار عليها ؛ هي: (إذ لم تكن تعرف إلى أين تذهب، فكل

الطرق تؤدي إلى هناك) فبالكاد نظر إلى وجه الفتاة التي اختارتها له والدته في أول مقابلة بينهما ..
وقد تعشم بعد الزواج منها أن تنسيه سميرة ، وحاول كثيراً أن يتأقلم على هذا الوضع ، حتى بعد أن أنجب من زوجته تلك ثلاثة أطفال ، لكن آل انطباعه أن لا فتاة أو امرأة مثل سميرة ؛ فذاكرته عن سميرة نقية ليس فيها موقف سيئ ، ونجده حين يتحدث عنها فكأنما هويتحدث عن ملاك وليس بشر..

ومع كل مشكلة تحدث في حياته الزوجية ، يتذكر تلك السمراء الحسناء، والتي مرت في حياته كطيفاً خفيفاً رقيقاً، وقد فَقد يحيى بعد فراقها الاحساس والمرح، ويصف نفسه أحياناً بأنه بعد سميرة قد أصبح بمثابة حيوان ناطق، والتي كان أكبر خطاياها أنها قد ولدت في بلاد العنصرية ، وراحت ضحية الإرهاب اللعين، الذي أحرق القلوب وحطمها وشرد الأسر المؤمنة..
وبينما كان الاستاذ يحيى غارقاً في بحر الذكريات ، هائماً سارحاً في صورة سميرة التي لم تكبر ، بينما صار هو هرماً عجوزاً، تخر عزيمته بمجرد التذكر فقط ، إذا بزوجته تتصل على هاتفه المحمول، كالعادة تلومه على تأخره ، تشكو وتتذمر من كل شئ ، فعدم وجود الحب في أي علاقة يجعل العلاقة أشبه بحالة من التذمر والقلق الدائم ، وكالعادة هدمت ملذاته وأقلقت راحته ، فقد خرج من عالمه الجميل لواقع مؤلم محمل بالهموم ، وفؤاده يترقب، في انتظار خلوة أخرى جديدة ، يستطيع أن يستعيد من خلالها أطلال ذكرياته الجميلة ..

يَا حَبِيبِي كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاء ..... مَا بِأَيْدِينَا خُلِقْنَا تُعَسَاءْ

أمل زائف

ومـن جديـد يـتردد صـوت أغنيـة الأطـلال ، لاسـيما ذلـك المقطـع الباعث للأمـل التفـاؤل حتـى وإن كان زائفـاً :

رُبَّمَا تَجْمَعُنَا أَقْدَارُنَا ..... ذَاتَ يَوْمٍ بَعْدَمَا عَزَّ ٱللِّقَاءْ

فَإِذَا أَنْكَرَ خِلٌّ خِلَّهُ ..... وَتَلَاقَيْنَا لِقَاءَ ٱلْغُرَبَاءْ

مَضَى كُلٌّ إِلَى غَايَتِهِ ..... لَا تَقُلْ شِئْنَا ! فَإِن الحق شاء

ظـل الاسـتاذ يحيـى، يحيـى مـع المـاضي يتأجـج حبـه لسـميرة ، وإذا بالقـدر يُرسـل لـه فتـاة تشـبه سـميرة ، وكأنـه في حاجـة لجمـرة تزيـد مـن حرقتـه عـلى فِـراق حبيبتـه، فقـد ظهـرت في حياتـه فتـاة شـابة ، تشـبه كثـيراً حبيبتـه ، التـي قـد فـرق بينـه وبينهـا المـوت ، كانـت تلـك الفتـاة تشـبهها كثـيراً - شـكلاً وموضوعـاً ، في بـادئ الأمـر ظـل عالقـاً جـراء مشـاعره التـي أوقعتـه بـين خيارِيـن لا ثالـث لهـما، تـارةً تخـبره بأنـه ينبغـي أن يسـتغل الفرصـة، ويتخـذ مـن تلـك الفتـاة عوضـاً عـلى مـا قـد سـلبه منـه القـدر، فعليـه أن يعتبرهـا هديـة لا تُـرد مـن القـدر ، وتعويضـاً عـما فقـد مـن حـب طـوال تلـك السـنوات الطويلـة الماضيـة؛ وتـارة أخـرى تخـبره أن حبـه الحقيقـي لسـميرة فحسـب ولا يحـق لأي فتـاة أو امـرأة أن تأخـذ نفـس مكانتهـا في قلبـه ..

ولأن الفتـاة كانـت تحتاجـه أيضـاً ، وتُقـدر تواجـده في حياتهـا كثـيراً ، فلطالمـا اعتبرتـه تلـك الفتـاة بأنـه أبـاً وصديقـاً تستشـيره في كل شـئ ، ولم تخدعـه يومـاً في شـعورها تجاهـه ، ومـن هنـا اسـتقرت مشـاعره وتفهـم حقيقـة شـعوره نحوهـا ، فقـد حـوّل كل مـا بداخلـه مـن مشـاعر تجاهها لطاقـة خـير ؛ حيـث وقـف بجانبها علمها الكثـير مـن أجـل أن تتقـدم وتخطـو بنجـاح نحـو مسـتقبل باهـر ، لم يكتـف بتلـك المسـاعدات والمسـاندات فحسـب ، بـل سـاعدها حتـى تزوجـت بمـن تحـب ، وبعـد فـترة أنجبـت تلـك الفتـاة- شـبيهة سـميرة- أول طفـلٍ لهـا أسـمته يحيـى ، عرفانـاً منهـا لأفضـال الاسـتاذ يحيـى ..

كان هـذا الموقـف النبيـل؛ هـو موقـف الأسـتاذ يحيـى؛ وذلـك نظـراً لسـمو أخلاقـه وثقافتـه ووعيـه بالحـب وأمـوره، لكـن ليـس الكثيريـن ممـن يتعرضـون لمواقـف مشـابهة يتصرفـون بتلـك الشـاكلة، فخلـط المشـاعر والضـلال عـن ماهيـة الحـب الحقيقـي وأهميـة التكافـؤ في العلاقـات، أنشـأ لنـا علاقـات شـيطانية تحـت مُسـمَّى الحـب...

وأحيانـاً يُترجـم الحـب إلى تضحيـة ، فالحـب ليـس أن ترتبـط وتتـزوج بمـن تحـب ، فقـد يكـون الإرتبـاط ليـس في مصلحـة أي منكـما ، الحـب أن تتمنـى السـعادة لمـن تحـب ، والدليـل حـب أسـتاذ يحيـى الـذي اعترتـه التضحيـات ، وتحـوَّل إلى رغبـة في سـعادة مَـن يحـب بعيـداً عـن حـب الـذات ، وكـما أن المجتمـع في العـادة يـرى الحـب مـع فـارق كبـير في السـن؛ عـلى إنـه شـئ مؤقـت؛ فقـد تكـون الفتـاة التـي تتـزوج ممـن يكبرهـا كثـيراً في العمـر، تفتقـد لحنـان الأب فحسـب ، وقـد تكـون نيتهـا مـن الـزواج مـن رجـل كبـير مـن أجـل المصلحـة البحتـة دون مشـاعر أو

رغبـة في الاسـتقرار ..

ومـرة أخـرى نجـد الأسـتاذ يحيـى قـد اكتفـى بذكرياتـه مـع حبيبتـه السـمراء ، عـادت ذكراهـا كالفراشـة الرقيقـة ترفـرف بجناحيهـا حـول ذاكرتـه، ويهفـو لهـا فـؤاده ، فتجعلـه يستشـعر أنـه مـازال حيـاً ، ويكفيه أنـه صـادف حبـاً حقيقيـاً في حياتـه ؛ فكـم أصبـح الحـب الحقيقـي نـادراً هـذه الأيـام ..

عودة

وعـودة للجارتـين المحبوبتـين الظريفتـين ؛ فاليـوم كان مُسـتهل ومُفتتـح أمسـية أم فـاروق وأم حسـين ، نبـأ هـام يتعلـق بخطبـة زينـة شـباب الحـي ؛ وهـو- حسـام - وهويلقـب بهـذا اللقـب؛ ليـس لسـموأخلاقه وأدبـه وثقافتـه العاليـة ، إنمـا لشـدة وسـامته ؛ فليـس الأمـر كـما كان الحـال عليـه في السـابق ، فقـد أصبـح الرجـل يُوصـف بالجمال كالنسـاء.. وبحسـب مـا ذكـرت أم فـاروق أن حسـام سـيرتبط بسـمر، تلـك الفتـاة الجنوبيـة السـمراء ، فكيـف لحسـام أن يـترك ابنتهـا الجميلـة مـن أجـل تلـك السـمراء ، وبـدت الدهشـة والسـخرية والحسرة ، ومجموعـة مـن الأحاسـيس التـي تملؤهـا الغـيرة والحقـد ، تظهـر عـلى وجـه أم فـاروق وأم حسـين ، فالدهشـة والذهـول كانـا سـيدا الموقـف ، فلـم ينفـكا يتسـآءلا كيـف لحسـام أن يُفضـل سـمر عـلى بقيـة بنـات الحـي ، مـا المميـز في تلـك السـمراء !

وحقيقـة الأمـر فضـلاً عـلى أن اللـه قـد وفـق بـين قلبيهـما ، فقـد كانـت سـمر عـلى قـدر كبـير مـن الأدب والثقافـة ، وكذلـك عـلى المسـتوى الشـكلي كانـت تمتلـك ملامـح جذابـة ، وقواماً ملفوفاً تجتمـع فيـه كل صفـات الأنوثـة ، وكـما أسـلفنا الذكـر فقـد أراد اللـه واسـتحوذت سـمر عـلى قلـب حسـام ذلـك الشـاب الأشـقر ، الـذي لطالمـا كان مسـتهتراً

ضائعاً ، يبحث منذ زمن عن عاشقة وصديقة ولم يجدها ، في ظل انتشار الاستخفاف والإنحدار الأخلاقي بين الشباب والشابات على حد سواء ، فكان يُحب ويهجر ..

والحقيقة أن حسام لم يعرف الثبات والتغير والتقدم في حياته ، إلا بدخول سمر حياته ؛ حيث كانت مثالاً يُحتذي به ، فقد علمته بشكل غير مباشر ، كيف يكون شخصاً مسئولاً ، فأصبح يتوه في سحر عينيها وآصالة لونها ، فقد رأى فيها جمالاً غير أي جمال..

وبالطبع لم تتفاهما أم فاروق وأم حسين وأمثاليهما من الإناث والذكور ذاك الكلام ، فكان سردهما للخبر ، وحديثيهما عن أقطابه نابع من منطلق السخرية من عدم تطابق لون بشرتيهما ، فكان سرد النبأ ؛ كالتالي:

أم فاروق: أم حسين أختي! ...لكِ أن تتخيلي مَن ستكون الفتاة التي سيخطبها حسام الأشقر الوسيم ذوالشعر الأصفر والعينين الزرقاوين !

أم حسين: حسام خطب! مَن يا أختاه؟!

أم فاروق: سيقوم بخطبة سمر السمراء.

أم حسين: لكن سمر أقل جمالاً منه ، إنها قبيحة ؛ إنها سمراء ، فشعره ناعم كالحرير ، بينما هي تمتلك شعراً خشناً مجعداً.....إلخ.

أم فاروق: ماذا نفعل يا أختاه ! فقد كان أمامه كل بنات الحي ، ولم يجد إلا سمر ليقوم بخطبتها ، إنها حظوظ حقاً !

ولم ينته الحديث عن خطبة حسام وسمر عند هذا الحد ؛ حيث لم ينفك كل المحيطين بحسام عن المعابة ، والتقليل من سمر والتشويه الغير مبرر لصورتها في عين حسام ، وإتهامها إتهامات على قدر مبالغ فيه من الجهل والتخلف ، والتي تتنفى مع أخلاق

وثقافة سمر وأسرتها ، وتلك الإتهامات تتلخص في أنها قد تكون قامت بالسحر له، من أجل الإيقاع به ، وجعله متيم بها هكذا .. وكانت أقاويلهن ومحاولتهن تشويه صورة سمر ، والتقليل من قدر جمالها ، كان حسام يطيح بها أدراج الرياح ، ويعي كل الوعي أن كل تلك الأقاويل منبعها الجهل والتخلف ؛ حيث كان يرد بعبارات منطقية ؛ مثل: أنه يسود لدى البعض انطباع غريب جداً، أوصورة نمطية مطبوعة عن كل شاب أوفتاة ، قد خلقوا ببشرة سوداء أوسمراء ، ذلك الانطباع يتلخص في أن كل من يمتلكون بشرة سمراء على درجة كبيرة من القبح ، دون النظر للشخصية ، دون النظر لملامح الوجه ومميزات الجسد ، حتى أننا قد نجد شاب أو فتاة سمراء تسخط على لونها ، وتجزم أن سمار وجهها ما هوإلا اسمرار نتيجة تعرضها لأشعة الشمس ، هذا بالطبع إذا كنا سننظر بسطحية ونعترض على صنيعة الخالق ...

وعلى إثر ذكر نبأ خطبة حسام وسمر ، تذكرا رفيقتا النميمة وجلب وإعداد وصنع المصائب بجدارة واستحقاق، والتي من شأنها إفساد علاقات الود في الحي ، وتدمير البيوت العامرة المستقرة ، قصة فريدة ذات البشرة الناصعة البيضاء التي تزوجت من فارس الأسود ، وأنجبت له فتاتين سمراوتين ..

والغريب أن فريدة وفارس يعيشا حياة أشبه بالمثالية ويسودها الحب بل والعشق ، لكن أم فاروق وأم حسين يتحدثا بشفقة وتحسر، على حد قولهم أن السبب قبح الطفلتين ، وأن هذا من بخت فريدة الأسود ، وقد بلغت الوقاحة بإحداهن أن تعيب في

طفلتا فريدة في وجهها ، وقامت بذكر قصة حقيرة جداً عن امرأة أنجبت طفل أسمر تركته في المشفى وذهبت ؛ حيث أنها قد صُدمت أن طفلها قد أخذ لون أبيه ..

تغيير الدفة

وبينما كانتا العقربتان تتحدثا فإذا بالباب يطرق، إنه فاروق الابن الذي إبتلي بأم ربته على مبادئ لا تطبقها في حياتها يوماً ..
وكان دخول فاروق قد ألهم أمه باتخاذ مسار جديد في الحديث، فقد حاد وآل الحديث عن حياة فاروق ، فاخذت فجأة توبخه أمام جارتها أم حسين ؛ حيث تحدثت أمامها عن رغبة فاروق هوالآخر في الزواج ..

ولكن من وجهة نظرها ثمة كارثة ، ألا وهي رغبته في الزواج من أحد زميلاته في العمل ، والتي تكبره سناً ، وإصراره على الزواج منها بشدة ؛ حيث أن فاروق يرى في حبيبته علياء مثال للفتاة المستقلة والمعتمدة على نفسها ، منذ أن فقدت والدها في سن مبكر ؛ ففي نظره أنها الوحيدة التي سوف تريحه وبإمكانها أن تكون مسئولة عن تنشئة أسرة قويمة - دينياً وأخلاقياً - .

ولكن ماذا عن الأم التي لا ترى ميزة لعلياء ، ولا تنتبه لشئ من كل هذا الثناء والمدح ، لا تذكر سوى أن هناك فارق ثلاث سنوات بين فاروق وعلياء ، وتَعتبر هذا الفارق الضئيل حاجز كبير ودفن

لشباب ابنها حياً، فليس لدى أم فاروق مانع أن يتزوج ابنها المتعلم الراشد من فتاة لم تبلغ السن القانوني للزواج بعقد عرفي ، المهم أن تصغره العروس سناً ..

وبالطبع يتطابق رد فعل أم حسين ورأيها مع رأي والدة فاروق ، فهما متطابقتان في كل شئ ؛ حتى في تمسكيهما بالموروثات والعادات والتقاليد البالية ، وأيضاً رؤية كل منهما بأن رأيها هو الصواب، ولا أهمية لرأي الزوج أوالأبناء في أي شئ؛ وبما أن الجزاء من جنس العمل فإنهما في كل مرة يتقابلا يتحدثا عن نفس المُشكلات؛ بالإضافة إلى مُشكلات جديدة ..

وكان فاروق ينظر لكلتيهما في دهشة وتعجب وسخط ، ولكن فضل الكتمان كعادته ، وكانت رأسه تخبره: (أنه يتحمل رأي والدته متحاملاً على نفسه وأعصابه فقط لأنها والدته ، فما حاجته لرأي البغيضة أم حسين هي الأخرى .. تباً)

احتفالات

وبعد مرور عدة أيام ، كان حفل خطبة حسام وسمر ، وكانتا السخرية والتلمز سيدتا الحفل ، والعبارات المملوءة بالعنصرية والاضطهاد للعروس تدوي في الأرجاء ، فمبدأ كل سمراء قبيحة هو سيد الموقف ، فنجد الحسرات على الوجوه ، ولكن حسام كان لا يسمع لهن ، ولا يرى من الحضور سوى حبيبته سمر ..

وطوال فترة خطبة سمر وحسام ، عانت سمر من مضايقات الجارتين، والحماة العزيزة أم حسام التي كانت تمزج السُم بالعسل، فكانت تتصنع الطيبة ، ولكن ترمي كلمات من شأنها خراب علاقة سمر بحسام ، ولكن بحجة أنها تخشى على مصلحتيهما ..

ولطالما اضطرت سمر كثيراً لسماع أحاديثهن عن علاقاته السابقة، والتي لم تعد قائمة ، والتي قد سبق وأن صارحها حسام بها ، فقد صارحها بكل ماضيه ، فكان يعرف طباعهن جيداً ، وأنهن يترصدن لإخبارها في أي وقت لحرق دمائها وإغضابها ، ولكن لا مفر فهن يحاولن مضايقتها وجعلها تُقدم على فسخ الخطبة ليس إلا ، فكانت

سـمر تسـمع مـن أذن وتخـرج مـا قلنـاه هـن مـن الأذن الأخـرى ...

وكان قـد تمـا عقـد القـران وحفـل الزفـاف بعـد أشـهر قليلـة مـن الخطبـة، وكان حفـل زفافيهـما يتمتـع برقـي شـديد ؛ حيـث الرقـص الرقيـق في صفـوف منتظمـة غـير المبتـذل ، وطقـوس الحنـاء ، والأغنيـات النوبيـة الأصيلـة المفرحـة دون صخـب أواسـفاف ..

وبعـد انتهـاء شـهر العسـل رجعـا العروسـين ، وقـد وافقـت سـمر المسـكينة عـلى المكـوث مـع والـدة حسـام في شـقة واحـدة ، مراعـاةً لظـروف حسـام الماديـة ، فقـد عـادا للشـقاء ، فتطبيقـاً للمثـل الشـعبي القائـل بـأن :
(الحـماة لوكانـت مثـل الحـلاوة السمسـمية في مذاقهـا الرائـع ، حتـماً لـن تسـلم الكنـة مـن أذاهـا ولولمـرة واحـدة في العمـر) ، فبعدمـا كانـت أم حسـام تتعامـل بـود ، وتدَّعـي طيبـة القلـب في معاملتهـا لسـمر ، سـقط القنـاع عـن ذلـك الـود المصطنـع ، فمـن تمسـكن قـد تمكـن ..

وقـد شرعـت أم حسـام في عملهـا كأحـد الحـماوات الفاتنـات ، فلـم تنفـك تنغـص عـلى العروسـين حياتيهـما ، تركـز في كل صغـيرة وكبـيرة ، فتعيـب وتقلـل مـن شـأن أي شـئ جميـل تفعلـه سـمر ، حتـى ألـوان ملابسـها التـي ترتديهـا وخاصـة الفواتـح ؛ فهـي تـرى أن سـمرة سـمر لا تجعـل الألـوان الفاتحـة تليـق بهـا في الملبـس ، فلـم تـترك فرصـة لا تسـبب فيهـا حـرج لسـمر ..

وكالعادة تبتلع سمر تلك الهفوات إكراماً واحتراماً لزوجها حبيبها، وتحملت كالكثيرات من الزوجات اللواتي يبغين الستر ، وتيسير الأمور وتحقيق الاستقرار في بيوتهن ولأسرتهن ..

ولم تتوقف مكيدات أم حسام عند ذلك الحد ، فكانت تواصل قصيدة التقليل من شأن سمر ، فلم تترك مجلساً إلا وذكرت فيه وصرحت عن رغبتها القديمة في تزويج حسام لضحى -ابنة أخيها- الشقراء والتي تشبهها كثيراً ، وعلى الرغم من البركان الذي قد كان يثور بداخل سمر ، إلا أن حبها لحسام يخمد رغبتها في الإنفجار في وجه تلك الأم ؛ فهي تثق أن حسام يحبها ، ولا يريد في حياته سواها، وكفى ..

نبأ سار وصدمة أم

وفي أحد الأيام يجتاح الفرح قلب سمر وحسام ، بعدما أكد لهما الطبيب أن سمر حامل ، فكان قلب حسام مملوء بالفرحة العارمة والحماسة ، فلم يحتمل قلبه أن يكتم ذلك النبأ ، وطار إلى المنزل لكي يخبر أمه عن تلك البشرى السارة ، لتشاركه فرحته وتهنئه، راجياً دعواتها ومباركتها له ، وما أن وصل لباب الشقة أخذ يطرق الباب متحمساً متعجلاً ، وإذا بالأم تفتح ، وهي في غاية الإنزعاج ، تسأله في حنق وانفعال : حسام ! ما الذي حدث لكي تطرق الباب هكذا! ..أجننت يا ولد !

فإذا بحسام يرد ؛ قائلاً : سمر حامل يا أمي! ..

وكانت الصدمة الحقيقية تكمن في رد فعل الأم ، فقد صُعقت لهذا الخبر ، وكأن سمر ليست كباقي النسوة ، وكأنها لن تلد لأسرة حسام طفلاً بشرياً ، بل أن نسلهم سيتحول إلى قردة ..

وظلت أم حسام طوال فترة حمل سمر – بدلاً من أن تريحها- تسمم بدنها ، واضعة يدها على قلبها ، وترمي بالعبارات السخيفة مستخدمة أسلوب التورية أثناء مشاهدتيهما التلفاز معاً ، فكلما رأت طفلاً أسود اللون أشارت إليه في سخرية ؛ قائلة : هكذا ستكون خلقة ولون بشرة طفلك يا سمر ! ويتبع هذا القول السخيف

ضحكة مستفزة من أم حسام ..

وتستطرد أم حسام كلامها المسمم هذا بالتحسر على حظ ابنها الأشقر الوسيم ؛ قائلة : ماذا لو كان تزوج من أجنبية من أصل أوروبي ، أو عربية من أصل أرمني ! ولكن تُرى إلى أين أخذنا حظه العاثر ، فقد أوقعه في شباك تلك الجنوبية !..

وفاض بسمر فبعد فترة من الكتمان ، فبدأت تقص على والدتها ذلك الكلام الغريب الذي تقوم والدة حسام بتوجيهه إليها ، فكان رد فعلها بأن قالت:

« ابنتي الغالية أعي أن أم حسام لديها لسان تجرح به الآخرين ، وتتعامل وكأننا ليس لدينا لسان نرد به أيضاً ، ولكن يا عزيزتي سمر عليكِ أن تتحملي هرائها هذا ، فكلامها كلام لا ينطق به عاقل ، فالأحرى لماذا ترضى الأجنبية التي تمنتها أم حسام بحسام، فحسام شاباً عادياً ، جَمَلِتُهُ أنتِ واكسبتيه طباعاً أضفت بعض المميزات على شخصيته ؛ فهولا يمتلك شهادة عليا ، ولا وظيفة مرموقة ، ويُعاب عليه العصبية المفرطة ، والتي كفيلة أن تسبب الإحراج لبلدة بأكملها ، ومع ذلك تغاضيتِي عنها وتحملتيها ، حتى استطاعتِي بجلدك وصبرك على حماقته تلك ، أن رأسه المتحجر هذا يلين ، وتهدئة حدة طباعه وقسوته تلك ، والأسوأ على الإطلاق أن حسام ليس لديه من المال ما يكفي لاستئجار شقة يقطن فيها أنتِ وهو، فعلى ماذا تتكبر تلك الحماة ؛ فالأمهات في مجتمعاتنا للأسف يا بنيتي ، لا يتمتعن بالمنطق إطلاقاً عند الحديث عن أبنائهن ؛ لاسيما في تلك الأمور التي تتعلق بالزواج ، إلا من رحم ربي، وحماتك تلك لا تريد إلا الخراب ، لذلك أريدك يا فتاتي أن

تلتزمي الصبر ، ولا تعطيها فرصة من أجل الحفاظ على استقرار بيتك ...

وبدأت الحماة تشد السلخ على زوجة ابنها ، فلم تخجل من إرهاق سمر في تنظيف وترتيب المنزل ، دون مراعاة لحملها وتعبها ، لاسيما عندما علمت أن سمر ستضع طفلة لا طفل ، وعلى النقيض تعفي ابنتها المدللة من خدمتها ، فقد كان لحسام أخت غير متزوجة وهي – سما - ، وأخت أخرى متزوجة وهي - بوسي، وكانتا أيضاً تُعلقا وتعترضا كثيراً على زيارة سمر لبيت أهلها مرة كل أسبوعين ..

ولطالما أفسدت أم حسام على سمر مُتعة الأنس بأهلها ، وكم من مرة منعتها من الذهاب إليهم ، سواء بالتعلل بأمور تافهة أوبإثارة خلاف بين سمر وحسام ، في حين أنها كانت تغضب ، وتقوم بصنع مشكلات لا طائل لها حتى يحدث مُرادها إذا تعطلت ابنتها بوسي يوماً ، ولم تستطع أن تمر عليها لزيارتها ..

وكانت سمر في لحظات الظلمة هذه يدور في رأسها العديد والعديد من التساؤلات ، محاولة البحث عن سبب منطقي لكل هذا الاضطهاد الذي تعاني منه داخل هذا المنزل ، وتحاول في كل مرة أن تبحث لذاتها عن خطأ ارتكبته تسبب في كل ذلك ، ملقية اللوم على نفسها لعلها ترتاح عندما تشعر بأنها تستحق كل هذا العذاب ..

وكلما سرحت سمر بخيالها ، والدموع منذرفة في رقة وصمت ، تتردد في ذهنها كلمات وتساؤلات ؛ مثال :لا أعي لما يتعامل أغلب أهل

الأزواج هكـذا مـع زوجـات الابـن ، ويتركـون مطلـق الحريـة ويلتمسـوا العـذر لبناتهـم ، وكأن زوجـة الابـن ليسـت مثـل بناتهـم ، وكأن ليـس لديهـا أهـل أوأبويـن يشـتاقوا إليهـا ، ويشـفقوا عليهـا ..

تخلي ورحيل

وفي تلك الأثناء كانت أم فاروق قد بلغ احتدامها ذروته ؛ فهي تأبى تماماً تزويج فاروق من زميلته التي تكبره سناً – علياء - فضلاً عن أنه قد زاد إصرارها وتصميمها على الرفض ، عندما علمت أن علياء نبتة أسرة مفككة ؛ حيث أنه قد انفصل أبويها منذ نعومة أظافرها، وبالرغم أن هذا الانفصال لم يؤثر على تربية وخلق علياء..

ولم تراع مشاعر ولدها ، فقد عرضت حب فاروق وعلياء لإحراج كبير ، ونجحت في إنهاء العلاقة للأبد ؛ حيث حدد فاروق موعد مع أهل علياء لطلب يدها ، ولكنه لم يتمكن من الوفاء بموعده هذا بسبب تعسف وتعنت والدته ، والتي ادعت لحظة خروجه للموعد أن الأزمة القلبية باغتتها وعادت من جديد ، فتراجع فاروق عن الذهاب ..

بينما تعرضت علياء لحرج كبير أمام أهلها ، ناهيك عن قلبها الذي جُرح ، وبعدها بفترة قصيرة حاولت علياء الحفاظ على ماء وجهها وكبريائها ؛ بأن وافقت على الزواج من أحد أقربائها المغتربين ،

وسافرت معه إلى الخارج ، واستقرت برفقة زوجها حيث عمله .. وسرعان ما تزوج فاروق من الفتاة التي أصرت عليها والدته ، تلك الفتاة التي لم تبلغ السن القانوني للزواج بعد ، وبدأت العثرات تعتري حياة فاروق ، فشتان بين علياء والفتاة التي اختارتها والدته.. ونجد أن فاروق قد عاش حياة عشوائية لا نظام فيها ، مع فتاة لا تعي ماهية الزواج وأسسه ، بيتاً غير نظيفاً ، وفكراً متأخراً؛ فهي لا تحتمل أي نقاش علمي أوثقافي معه وتسميه تعقيداً ، فسرعان ما تمل منه ، ناهيك عن مصروف البيت المبدد دوماً على التافهات ، حتى الاهتمام بالنفس لا تجيده ، فكان فاروق يعيش معها جسداً بلا روح ، فروحه تسري وتحوم في مكان آخر ، حيث توجد علياء .. وبينما كان فاروق جالساً بجانب النافذة يعيش بداخل أحزانه ، فقد أصبح منغلقاً على نفسه كثيراً ، محاولاً الغوص داخل عالم الذكريات المليئ بالأحداث التي تريحه بمجرد تذكرها فحسب ..

كبت وانفجار

فإذا بزغاريد تدوي في المنزل المجاور ، إنهم أهل سمر فقد وضعت سمر ، قد أنجبت فتاة غاية في الجمال سمراء كوالدتها، بينما كانت أم حسام - الجدة الحماة – جالسة في المنزل جالسة على أريكتها تستقبل المهنئين وكأنه عزاء ، فلم تحمد الله على نعمته ..

وبين فترات تلتزم فيها الصمت في وسط هذا الجمع ، كانت تطلق عبارات مسيئة بمثابة سم قاتل سريع المفعول ، فاللسان والكلمات الجارحة يفعلا ما لم تفعله الحروب بالبشرية ، كقولها : (أنجب حسام فتاة ؛ ولكنها لم تأخذ منه أي جمال» ، و« اللهم استرنا ومكنا من تزويجها حينما تكبر وتصبح في سن مناسبة للزواج) ..
وكلما وقعت عبارة من تلك على مسامع سمر ، إذا بدمعاتها تنهمر في الوقت الذي ينبغي أن تكون في قمة فرحها وسعدها، وكالعادة تتحمل سمر المسكينة وتتسع دائرة الكبت وكتمان الإساءة بداخلها..

وبمرور الوقت طفح كيل سمر ، وبدأت تدخلات تلك الحماة وكلماتها اللاذعة التي تُطلقها في وجه سمر ، تتسبب في مشكلات

حقيقية بين الزوجين ، حيث فقدت سمر صبرها وبدأت تشكولحسام، نظراً لكثرة افتعال أمه المشاكل ..

وتفاقمت تلك المشاكل بسبب عدم تدخل حسام ، فإنه يخشى أمه كثيراً ، ولا يريد إغضابها ، وعلى الصعيد الآخر لم يعجب سمر ردة فعله هذه ، وأصبحت تتهمه على الدوام ببرود الاحساس واللامبالاة، وعدم احترامه لها ولكرامتها كزوجة له ، فصار حسام كزوج الاثنين ، لا يعرف مَن يُرضي أمه أم زوجته !..

وبدأت سمر تُعبر بشكلٍ واضح عن سأمها من ذلك الوضع وسخطها عليه ؛ إلى أن رأت أنه من الصواب بأن تحمل حالها وابنتها على ذراعيها ، تاركة لهم الجمل بما حمل ، ذاهبة إلى بيت أبويها، معبرة بذلك عن غضبها ورفضها لذلك الوضع ، وتلك الإهانات الغير مبررة ..

وتوالت المشكلات ومضى الوضع نحوالأسوأ ، حتى وصل الأمر بأن طلبت سمر الطلاق من حسام ، وبعد محاولات كثيرة من حسام لإرجاع سمر عن قرارها هذا ، فشل وكان الانفصال والطلاق هوالحل في نهاية المطاف..

عودة لحضن الأم

وهـا قـد عـاد حسـام لحضـن والدتـه مـرة أخـرى ، تلـك الوالـدة التـي لم تخجـل لخـراب بيـت ولدهـا الوحيـد ، فـإذا بهـا تبحـث لـه عـن عـروس بيضـاء تجتمـع فيهـا كل مواصفـات الجـمال مـن وجهـة نظرهـا ..

وبالفعـل خضـع لرغبـة أمـه في تزويجـه، وكأي زوج أوكأي شـاب يريـد أن يصـون نفسـه عـن الفحشـاء ، تـزوج تلـك العـروس ، آمـلاً ألا تتكـرر مـن أمـه نفـس المشـكلات التـي لطالمـا آثارتهـا لسـمر ، ومـا جعلـه يطمـئن هـذه المـرة أن تلـك العـروس مـن اختيارهـا ...

وطبقـاً لمقولـة « الدنيـا يـوم لـك ويـوم عليـك « تنقلـب الأمـور رأسـاً عـلى عقـب بسـبب هـذا الاختيـار الـكارثي ، فقـد اسـتخدمت تلـك العـروس نفـس أسـلوب أم حسـام ، فقـد تمسـكنت حتـى تمكنـت هـي الأخـرى ، فبعـد أن تزوجهـا حسـام ، غـيرت أسـلوبها تمامـاً ..

ومـن الأسـلوب الناعـم الرقيـق لأسـلوب فـظ قـاسي ، فـإذا قالـت والـدة حسـام يمـين تختـار هـي اليسـار ، فخالفتهـا في كل شـئ ، وأذقتهـا مـن نفـس الـكأس الـذي لطالمـا تجرعـت منـه سـمر حتـى ضـاق بهـا

الحـال، فـكأن القـدر ينتقـم لسـمر المسـكينة، دون أن تبـذل مجهـوداً أو تتكبـد العنـاء، وأصبـح شـعور والـدة حسـام كشـعور المشـعوذ الـذي قـام بتحضـير عفريتـاً أو جِنيـة ملعونـة ، ولم يتمكـن مـن تصريفهـا وإزاحتهـا..

خيانة وفضيحة

وتـأتي المصيبـة والصدمـة الكـبرى ، عندمـا طلبـت والـدة حسـام منـه؛ أن يقـوم بتوصليهـا لبيـت أخيهـا عبدالقـادر بالأسـكندرية ، لـكي تريـح أعصابهـا قليـلاً مـن هـول مـا فعلتـه بنفسـها ، إثـر اختيارهـا لتلـك العـروس الملعـون كزوجـة جديـدة لولدهـا ..

وقـد تشـجعت في طلـب ذلـك عندمـا علمـت مسـبقاً مـن حسـام ؛ أنـه ذاهـب بالفعـل للأسـكندرية في مأموريـة تابعـة لعملـه ، وحينـما ذهبـا معـاً لمحطـة القطـار ، إذا بهاتـف حسـام يـرن ، فقـد كان هـذا الاتصـال مـن رئيسـه بالعمـل يطلـب فيـه مـن حسـام إلغـاء تلـك المهمـة والبقـاء بالقاهـرة ، فاعتـذر حسـام مـن والدتـه ، واكتفـى بتوصليهـا للمحطـة ... وبعدمـا اطمـئن لركوبهـا القطـار ، عـاد للمنـزل وحينـما أخـرج المفتـاح مـن جيبـه ، خُيـل لـه أنـه قـد سـمع صـوت رجـل داخـل شـقتهم ، فتريـث والتـزم الهـدوء في فتـح البـاب والدخـول ، لـكي يعـرف مـا الـذي يحـدث في الداخـل بالفعـل ، وإذا بـه يتفاجـئ بمشـهد صـادم لخيانـة زوجتـه لـه مـع شـاب أسـمر اللـون ..

وكاد يفقد أعصابه ويقوم بقتلها وقتله ، عقاباً لهما وثأراً لتلك الخيانة الشنيعة ، لكنه تمهل وأدرك في تلك اللحظة أن كلبا الخيانة لا يستحقا الموت ، فالموت راحة لمثليهما ..

وفي لحظة تشبه اللحظة التي تسبق فُقدان الوعي، تلك التي نشعر بها أحياناً حينما ننصدم صدمة شديدة تجعل الرأس يُصاب بدوار مُفاجئ، تذكر سمر التي لطالما تحملت من أجله الكثير ، ويكفي عفتها وصونها لعرضه ، وتذكر أيضاً كيف كان جزاءها ، وكيف عُوقبت من أجل شئ لا ذنب لها فيه ، فكان كل ذنبها رغم حسنها وجمالها المادي والمعنوي ، رغم تميزها الشخصي والجسدي ، أنها في بلاد العنصرية قد ولدت..

وتحول الأمر لفضيحة؛ فقد قام حسام بطرد الزوجة الخائنة وعشيقها ، إلى خارج الشقة دون ملابس ، وقام بطلب الشرطة لهما، والجيران وأهل الحي متفرجون على تلك الفضيحة الشنعاء ، وصار أمر خيانة زوجة حسام أمراً معروفاً للجميع ، وحديثاً رائجاً بين أهل الحي..

وبينما كانت الشجون تُباغت ذهن سمر عقب إنتشار تلك الأخبار المريعة ، وتذكرت كيف باعها حسام من أجل إرضاء أمه الغير عادلة ، وتتساءل كيف انصاع للموافقة على تلك الزيجة من تلك المرأة الرخيصة ، كان حسام يجلس هوالآخر ، والدموع تملأ عيناه نظراً لما آل إليه الوضع ، والتلفاز مضاء ولكن لم يكترث به ، فإذا بأحد البرامج يذيع مقطع قديم لأحد لقاءات العلامة الدكتور

مصطفى محمود - رحمه الله - حينما كان يتحدث عن الزواج وكيف يثري الزوجان حبهما ، وأوضح بطريقة بسيطة ومنطقية أساس الزواج، وأساس اختيار شريك الحياة - فالزواج بحسب ما فهمت من حديثه هذا ، لا يستمر بناءاً على الشهوة أو حتى العاطفة ، وحتى إذا استند الحب عليهما ؛ فإنه حتماً سينتهي أمره بعد اثنتي عشر يوماً من الزواج - أي قبل انتهاء شهر العسل .. أيضاً ذكر د.مصطفى في مثاله الشهير ، أن لا إنسان مهما كانت درجة حبه لصنف معين من الطعام ، وضرب مثال على لحم الديك الرومي ، أن يأكل منه أكثر من اثنتي عشر يوماً على التوالي، ولكن حسبما قال ، أن الشئ الوحيد الذي يجعل أي زيجة تستمر، وأن يتحمل كلا الطرفين الآخر ؛ هو:

العقل والفكر ، فعقلية الشريك سواء زوج أم زوجة ، ومدى احتياجهما لبعضهما البعض ، هي التي تجعل من التحمل والصبر والتخطي للمساوئ وعيوب الشريك ، سمات أساسية يرتكز عليها الزواج حتى في أسوأ الفترات التي قد يمر بها أي زوجين ، فالمواقف التي تبرز الشخصية وجمالياتها ؛ هي التي تصنع في حياة كل شريك ذكريات عن شريكه ، و كلما كانت الذكريات تحمل مواقفاً جميلة وحكيمة ، كلما تغافل الشريك عن أخطاء شريكه وسامحه على أي خلافات كانت...

وكان رأس حسام يقول له : حتى القدر يلومك يا حسام ويتوعد لك ، سأجعل من كل موقف يمر أمامك توبيخاً لك وعتاباً قاسياً ، وسأحملك على الندم على كل ما اقترفته من ذنب تجاه المسكينة سمر ..

وبعد تلك الفضيحة ، بشأن ما حدث من تصرفات مشينة من زوجة حسام الثانية ، والتي كان زواجه منها بإصرار وإلحاح من والدته ، وانصياعه لأفكارها العنصرية بشأن العرق واللون ، بدأت الحكمة والحسرات تتردد على الأفواه ، وبدأوا يتذكروا محاسن سمر، هذه الأفواه هي نفسها التي لطالما أعابت في سمر ، تلك السمراء الوفية ..

والآن المطلوب من سمر أن تغفر كل هذا لزوجها حسام مرة أخرى، فمجتمعنا يغفر للرجل أخطائه مهما عظمت ، رغم أن الله لا يضيع عمل أي إنسان سواء ذكر كان أم أنثى ، فماذا لو كان الوضع منعكساً ، وكانت سمر هي من أخطأت !
وسبحان مُغير الأحوال من حالٍ إلى حال؛ فقد تغيرت آراء أم فاروق وتؤامتها أم حسين عن سمر ، فقد قطع القدر لسانيهما عنها ، ولكن بعد ماذا! بعد درس قاسي ، ومثال حي موجع ..

معاناة

وبِذكر أم فاروق ، فقد تحولت حياة فاروق الذي لزم الصبر لبركانٍ خامد ، فتحمل كثيراً تلك الفتاة المدللة التي اختارتها أمه ، فتاة لا تقدر ولا تعي أي مسئولية للزواج ، فأصبح منزله معروفاً بعدم النظام وعدم النظافة ، وكانت تلد كل تسعة شهور تقريباً ، حتى وصل عدد أطفالهما لستة أطفال ، تشفق العين على منظرهم عند رؤيتهم منذ الوهلة الأولى ، فهم دائماً مُهمَلون ، نظراً لأن تلك الأم مازالت تعتبر نفسها صغيرة على المسئولية ، ودائماً ما تتركهم للأرض والشارع لكي يقوما بتربيتهم ، فيلتقطوا بإيديهم من الأرض ما يمرضهم ، ويلتقطوا بأسماعهم الألفاظ البذيئة التي تردد في الشوارع والطرقات ..

لقد كان هؤلاء الأطفال ضحية أم مهملة لم يتلقوا تربية جيدة، فأصبحوا لا يدركون القيم ، يفتقدوا معنى الأمانة ، فأي شئ يجلبونه للمنزل لا تسألهم الأم من أين أتيتم به ، فتحول أولاد فاروق لعصابة من الصغار ، فهكذا أصبحت ذرية فاروق ذلك الموظف المتميز الدؤوب ، وبدلاً من أن ينجب ذرية صالحة مثله

تفيـد المجتمـع ، فقـد قضـت تلـك الزوجـة الجاهلـة عـلى كل ذلـك ، فكـما قالـوا قديمـاً (البيـت امـرأة) ..

الأرملة التي عشقت

وبعد استقرار الأمر بين حسام وسمر أوما قد يبدو ظاهراً أمام الناس ، فقد عادت سمر من كثرة ضغطهم بشأن مسامحتها لحسام ووالدته ، عادت وقد انطفأ الحب داخل قلبها الذي لم يستطع مسامحة حسام ..

وإذا ببوسي أخت حسام تدق جرس الباب ومعها زوجها - عمر وطفلايهما ، جاءوا للمكوث في البيت مع والدتها ، وحسام وزوجته وطفلتهما ، وعندما سألت الأم عن سبب مجيئهم ، اندفعت بوسي؛ قائلة : (السبب أم عمر زوجي ، لقد فقدت عقلها وتزوجت ، ونحن غاضبين لتصرفها الشائن هذا ، فكيف لأرملة في عمرها هذا أن تحب وتتزوج ، ألم تضع اعتباراً لنا ! والكارثة أنها تزوجت من شاب يصغرها بكثير ، فقد أحبت أحد أصدقاء عمر ، حتماً ستفشل هذه الزيجة !) ..

وكعادة سمر تنصر الحق وتتحدث بحكمة ، فردت على بوسي ؛ قائلة : ماذا بكِ يا بوسي ، وكأن ليس من حق من مات زوجها ،

وقد تزوج أبناؤها أن تتزوج مرة أخرى ، وأن تبحث عمن يؤنس وحدتها ..

وإذا تخوفنا من قصة أن زواج المرأة المسنة من شاب ، بحجة أنه قد يكون طامعاً فيما لديها من أموال وممتلكات ، فإن هناك حالات ناجحة تبدأ بخير مثال ؛ رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- وزواجه من أم المؤمنين السيدة خديجة -رضي الله عنها- ، (ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ... صدق الله العظيم..
فلوكان الله قد حرم فارق السن ، أوحدده بين أي رجل وامرأة يرغبا في أن يتزوجا دون شرطاً أو زمناً محدداً ، لما جعل سيدنا ورسولنا الكريم يتزوج من امرأة تكبره بنحوعشرين عاماً ، فقد حرمنا ما أحل الله ، حتى وإن كان ذلك المثال يعبر عن نموذج مثالي لن يتكرر ، فالخطأ نابع من عاداتنا وتقاليدنا التي قيدنا أنفسنا بها ، فقد جعلنا من المرأة التي تقدم بها العمر شيئاً لا قيمة له ، مما جعل أي شاب يشعر بأن زواجه من امرأة تكبره بمثابة دفن لشبابه حياً ...

وبالمنطق لما قد يتزوج أي إنسان! يتزوج الإنسان يا عزيزتي ببساطة شديدة عندما يشعر بحاجة لشريك يكمل نواقصه ويشاركه حياته، بكل ما فيها من أفراح وأطراح ، وقد يفكر الشاب في امرأة تكبره بهدف بعيد عن البحث عن الثراء ، والاستغلال العاطفي من أجل المادة والمال ، فقد يكون محتاجاً احتياجاً عاطفياً بحتاً ، فما أكثر الابتذال المنتشر بين الفتيات هذه الأيام ، فقد يكون محتاجاً لامرأة ناضجة تتفهمه ..

وتُتابع سمر الحديث :
وإذا أمعنا النظر قليلاً نجد أن هناك حالات من زواج الأرامل والمطلقات من رجال في نفس عمرهن أوأكبر ولم تكلل بالنجاح ، و أحياناً يرغبن في الزواج من رجال في سن مناسبة أيضاً ، ولكن تصبح الفكرة مرفوضة سواء من الأبناء أو الأهل لمجرد أنهن مطلقات أوأرامل ، فكأن من انفصلت عن زوجها أومات يجب أن تموت بعده، فمجتمعنا يحكم من منطلق المظاهر ، ولا يستطيع الكثيرون مخالفة تلك التقاليد الاجتماعية التي لا علاقة لها بالمنطق الصحيح، وليس لها أساس في جميع الأديان السماوية ، لمجرد الشعور بالغيرة والأنانية ..

وتستطرد سمر كلامها؛ قائلة :
ليس صواباً يا بوسي أن تتركوا البيت لأم زوجك ، عليكم أن تكونوا بجانبها ، فماذا لو كان ذلك الشاب غير لائقاً بالفعل ، وأساء معاملتها ، وسرق أموالها ، هل ستترك والدتك لقمة سائغة لذلك الشاب يستغل ابتعادكم عنها ومقاطعتكم لها يا عمر !! ..
وحسام ينصت لكلام سمر ، وكأنه يسمع نغماً أصيلاً نادراً ، ويُشارك في الحديث مؤيداً لرأي سمر ، وكأنه يُلاطف سمر بذلك التأييد ؛ قائلاً:
يا بوسي بالتطرق للواقع وانفتاحه في عصرنا الحالي ؛ فلهذا الموضوع جوانب مهمة ؛ فهناك سيدات لا يستطعن التعايش بدون زوج ، فهل ندفعهن بتلك التقاليد الغير منطقية كما أسلفنا الذكر للوقوع في الرذيلة وارتكاب الفواحش ! هل عار ارتكاب فاحشة يُضاهي

حـرج ينجـم عـن كـسر عـادات وتقاليـد ليـس لهـا قيمـة وأسـاس مـن الصحـة في الديـن وكافـة التشريعـات السـماوية ! وأثنـاء قولـه تلـك الجملـة الأخـيرة كانـت نبرتـه تعـج بـالألم ، وكأنـه تذكـر زوجتـه الخائنـة التـي لم تحتمـل سـفره ، ودعـت رجـلاً آخـر إلى فراشـه ..

وتستطرد سمر؛ قائلة :

أعـي أن هنـاك نسـوة وأنـا واحـدة منهـن نعيـش لرجـل واحـد ، فـإذا متنـا ماتـت أرواحنـا معـه ، وتظـل أجسـادنا حتـى نلقـى وجـه رب كريـم ، نعيـش لتربيـة الأبنـاء والعمـل فحسـب ؛ فالمسـألة تختلـف مـن امـرأة لأخـرى ، المسـألة تتعلـق بالقناعـات الشـخصية ، فـلا تعاملـوا كافـة النسـاء عـلى أنهـن سـواء ..

فقـط ارتقـوا مـن أجـل علاقـات سـليمة ، فـلا تضيقـوا مفهـوم الحـب ولا تضعـوا مزيـداً مـن الاعتبـارات والمقاييـس والـشروط البعيـدة كل البُعـد عـن مفهـوم الحـب الحقيقـي ، لا تضعـوا شروطـاً اللـه ورسـوله أبريـاء منهـا ...

وبَـدت عـلى وجـه حسـام علامـات الـسرور بمـا قالتـه سـمر ، ونظـر إليهـا بفخـر وحـب شـديد ، لكـن سـمر مـازال جرحهـا العميـق غائـراً مفتوحـاً ، فـأدارت وجههـا عنـه ...

كوميديا العنصرية

وبينما كان -علي- صديق فاروق وحسام ، والذي لطالما يُجالس الاستاذ يحيى على المقهي ، يشاركه لعب الطاولة ، وهو يقطن معهم في نفس الحي ، ذلك الشاب الذي يُقال له أنه قزم ، يجلس مشاهداً أحد العروض المسرحية المذاعة على شاشة التلفاز، والمفترض أن ذلك العرض كوميدي بحت ، ولكن لم يستطع ذلك الشاب المسكين أن يبتسم ابتسامة واحدة ، فلأسف كل المواقف المضحكة في ذلك العرض المسرحي قائمة على السخرية والاستهزاء من الأقزام ، فحلت الدموع النابعة من قلب مكسور جريح مكان الضحكة ..

وقد تعجب علي من تلك العنصرية المُباحة والمقبولة ، والتي يتقاضى مؤلفوها وعارضوها أجراً كبيراً ، فضلاً عن الشهرة والتقدير المُبالغ فيه ، وقرر علي أن يُفرج عن نفسه قليلاً بالتنزه في الطرقات والشوارع ، لعله يستنشق هواءاً نظيفاً يداوي ما به من جروح السخرية ، ولكن نجده قد عاد لمنزله وقد زاد حنقه وغضبه ، لما سمعه من سخرية ونكات وجمل شهيرة يُرددها الناس

في الشوارع إثر مشاهدة ذلك العرض المسرحي الرديء..

وتوالت عليه الذكريات والمواجع حينما تذكر تلك الفتاة الوحيدة التي أحبها في حياته ، وظل متيم بها لسنوات ، يُراقبها من بعيد ، فحبها قد أرقه كثيراً ، فقد كان يتذكرها في نومه ويقظته ، وعندما نصحه أحد أصدقاؤه بأن يتجرأ ويفصح لها عما ينموبداخله من مشاعر حب تصل لدرجة العشق، وتبرع ذلك الصديق بمصراحتها نيابةً عنه ، فتكفل بأمر إخبارها لكي يرفع الحرج قليلاً عن علي ..

والمفاجأة أنه بمجرد أن علمت الفتاة انفجرت ضحكاً وسخريةً ، وكان علي ذلك المسكين يُشاهد عن كثب ، والكارثة الأشد فتكاً بفؤاد علي أنه علم بزواج صديقه هذا من تلك الفتاة فيما بعد ..

وخُيل لعلي ترويحاً عن نفسه ، أنه قد وصل لمنصب كبير ، وأنه قد صعد على أحد المسارح يخطب ، والتلفاز يسجل كلمته تلك، فقد سنحت له الفرصة لينتقم لتلك الإهانة والعالم كله يسمعه؛ قائلاً :
هكذا وللمرة المليون يسخط ويسخر المخلوق على خلقته وخلقة إخوانه ، وللأسف قد نسي الكثيرون وتغافلوا عن يوم سيقفون فيه أمام البارئ ؛ فنحن مجتمعات لا يعجبها شئ ، فنفس الوضع يحدث مع الفتاة الطويلة ؛ فهي الأخرى لها نصيب ضئيل من الحب ..

والعجيب أن مجتمعاتنا تُعيب في الطويل كما تُعيب في القصير ،

وكأننا لا نعرف ما نُريده تحديداً ، فلا أعي لماذا نوغر صدورنا تجاه بعضنا البعض ! نفعل كل ذلك ولا نضع حدوداً لألفاظنا وكلماتنا، فلا ندري أن تلك المعابات والهفوات التي تتخلل أغلب أحاديثنا، قد يُبنى عليها في الواقع مشكلات كبيرة ، ساهمت بلا شك في فسادة أغلب علاقاتنا وأخلاقنا ، مما جعل الجفاء الاجتماعي سمة سائدة في الوقت الذي نطمح فيه للترابط من أجل النهوض نحومستقبل وحياة أفضل..

وتذكَّر مثالاً من الحي ، فالحي كله يتعجب لطول ونحافة - أسماء بنت صاحب البقالة - العم بهجت ، ويظهرون هذا التعجب والسخرية في وجه أسماء ، ولطالما وصفوها بالنخلة ، ويسخرون من شعرها القصير والمجعد ، فيشعرونها هي الأخرى أنها أقل من بنات جنسها ...

والحقيقة أن أهل الحي لا يخجلون في وصف عائلة العم بهجت كلها ؛ بأنها عائلة غير متناسقة ، فنجدهم أيضاً يسخرون من فاطمة أختها – الشهيرة باسم بطة - لأنها سمينة وللأسف كانت فاطمة تعاني من مشاكل في الغدة الدرقية ، فليس امتلاء جسدها بسبب شراهة في الأكل إنما لحالة مرضية ، فلطالما كانت ملامح وجه فاطمة مثال لجمال الطبيعة ، فملامحها تحمل بين طياتها ابتسامات رقيقة وبراءة الأطفال ، وفي ذات الوقت كانت فاطمة تلميذة مجتهدة فلطالما تفوقت في دراستها ، وأيضاً كانت فتاة مطيعة تخدم أسرتها بكل حب ، فكانت مثال للفتاة المثالية ...

ولكـن في نظـر الجميـع أن امتـلاء جسـدها ينتقص منهـا كثيراً ، فسـلبوها الثقـة بالنفـس وحبهـا لذاتهـا ، وحتـى حينـما تغاضـت عـن احاديثهـم الفارغـة هـذه ، وتركـت لنفسـها مجـالاً لأن تتـصرف بشـكل طبيعـي ، وأن تفتـح للحـب باباً وتـترك متسـعاً لدخـول شـاب في حياتهـا ، ومـن ثـمّ تتـزوج وتمتلـك بيتـاً مسـتقلاً كباقـي الفتيـات ، لم تجـد للأسـف مـن شـباب هـذا الجيـل فتـى يُقـدر فيهـا شـخصيتها الفريـدة ..

ولم تنـس فاطمـة قـط ذلـك الشـاب الـذي تعرفـت إليـه عـن طريـق مواقـع التواصـل الاجتماعـي - فيـس بـوك - والـذي اقـترب منهـا واقتربـت منـه لعـدة سـنوات مـن خـلال المحادثـات اليوميـة الطويلـة، ربطـت بينهـما صداقـة أوشـكت أن تصـل لدرجـة الحـب ، ولكـن حينـما طلـب أن يُقابلهـا بـاع كل مـا تلمسـه بداخلهـا مـن صفـات وأشـياء جميلـة ، وكان كمـن عرفتهـم فاطمـة مـن قبـل ، لا يتقبـل فكـرة الـزواج مـن فتـاة سـمينة ..

ويسـتطرد حديثـه ، ليتـم خطبتـه ؛ قائـلاً :لا أعـي لمـاذا نعيـب في الشـخص السـمين أوالممتلـئ رغـم أن كل شـخص ينفـق مـن جيبـه لا يُكلـف أحـد حـق طعامـه ، وأعـي أن السـمنة خطـر يجـب عـلى كل إنسـان التخلـص منهـا ليحيـا حيـاة سـليمة وبشـكل صحـي ، ولكـن مـن أعطانـا الحـق للتدخـل في شـئون الآخريـن وحريتهـم الشـخصية ، مَـن طلـب منـا أن نُقـدم لبعضنـا البعـض نصائـح لم نطلبهـا ...

وكـما سـبق وأن ذكرنـا لم تسـلم عائلـة العـم بهجـت مـن التعليقـات السـاخرة مـن أهـل الحـي ، فلـم يتركـوا وحيـد ابنـه في حالـه ، فكلـما

تقـدم وحيـد لخطبـة أحـد الفتيـات ، كان سـبب رفضهـا صلـع وسـمنة وحيـد ، رغـم أنـه أسـتاذ جامعـي فاضـل ، ومُكافـح ومجتهـد للغايـة، ولديـه مـن المدخـرات مـا يكفـي ليحقـق مطالـب وشروط الـزواج هـذه الأيـام ، وكلـما مـر أمـام مجموعـة مـن الفتيـات التافهـات أطلقـن ضحكاتهـن التـي لا معنـى لهـا أمامـه ، والمحملـة بالسـخرية والاسـتهزاء، وكل واحـدة منهـن لتثـير غضـب الأخـرى وتسـتفزها ، تقـول (انظـري هـذا سـيكون شـكل زوجـك) وسرعـان مـا ينفجـرن ضحـكاً مـرة أخـرى..

دعوة زواج

وإذا بالهاتف يرن ؛ إنها والدة سمر قد اتصلت كي تُبلغها أن أخيها أيمن - قد حدد موعد لزواجه ، فقد تأخر زواج أخيها كثيراً ، وكاد هووعروسه أن ينفصلا أكثر من مرة ، فحبهما قد أوشك على أن يتبخر ، نظراً لكثرة المشكلات بين أهله وأهلها ، فيما يخص تجهيزات المنزل الذي سيقطنا فيه بعد الزواج ، وقيمة المهر والذهب الذي سيقدمه أيمن للعروس ... إلخ.

فكان أهل العروس يصرون على أشياء غريبة ؛ فهم يصرون على وجود ما يسمى ب « النيش « ، في حين أن مع زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون ، وتزايد وتفاقم ظاهرة الاحتباس الحراري ، فإن أيمن والعروس – حسناء - يرغبا في شراء مبرد للهواء ، بدلًا من ذلك المخزن الخشبي الذي يحتوي على أدوات وتحف لا استخدام لها أغلب الأحيان في الحياة العملية ، وأسعار شراء محتوياته مبالغ فيها ..

ففـي كل مـرة يحـددا أولوياتهـما يجـدا مـن يُعارضهـما مـن أهـل العـروس وبالأخـص والدتهـا ، التـي تُقـارن بـين ترتيبـات زواج ابنتهـا وزواج باقـي فتيـات العائلـة ، وتُـصر أن تصـير ترتيبـات زواج ابنتهـا بتكاليـف أعـلى منهـن ، وتسـتمر بالضغـط عـلى أيمـن ، فـكل مـرة يضطـر للتأجيـل حتـى يُـرضي حماتـه ، وهـذا الموقـف الغـير عـادل يثـير غضـب والدتـه هـي الأخـرى ..

وكل مـرة يُحـاول أيمـن أن يُـرضي حماتـه ، تحـدث عـثرة جديـدة ، ولكـن اسـتطاع أيمـن هـذه المـرة ، أن يتحمـل ويضغـط نفسـه ، حتـى تمكـن مـن اقنـاع أهـل العـروس بعقـد القـران ، وبالفعـل حـددوا موعـد ، ومـن ثـمّ اتصلـت والدتـه بسـمر أختـه لتخبرهـا ..

وبالفعـل قـد تـم تجهيـز كل شـئ ، وحـضر الجميـع أنفسـهم لحضـور عـرس جديـد وميمـون ، وإذا بـأم العـروس تتـذرع بحجـة جديـدة ، وتدقـق كعادتهـا عـلى شـئ تافـه في كتابـة القائمـة التـي توثـق مـع عقـد القـرآن ، وانفعـلا الطرفـين لذلـك التدخـل الغـير مـبرر مـن أم العـروس، وإذا بالفـرح يتحـول إلى حـرب بـين أهـل العريـس وأهـل العـروس ، فقـد اختلفـا وتـم إلغـاء عقـد القـران داخـل القاعـة ..

وعـاد كل طـرف إلى منزلـه ، وكأنـه لم يحـدث شـيئاً كبـيراً ، واعتقـد أيمـن وعروسـه أن أهليهـما كل منـه عـلى صـواب ، وانصاعـا إلى تحكماتهـم الفارغـة ، ولكـن بعـد مـرور فـترة أدرك كل منهـما أن قلبيهـما قـد تبـدلا وتغـيرا ، فأصبـح أيمـن مصاباً بحالـة نفسـية ، أصبـح لا يرغـب في التحـدث كثـيراً ، وطـوال الوقـت هائمـاً سـارحاً في ملكـوت آخـر ، بينـما

كانـت العـروس كل ليلـة تجهـش بالبـكاء ألمـاً وحـسرةً واشـتياقاً وعجـزاً..

وكانـت صديقاتهـا يصبرنهـا بأنـه يسـتوجب أن تحمـد اللـه وتشـكره أنهـا لم تُتمـم عقـد القـران هـذا ؛ فقـط حتـى لا تحصـل لقـب مطلقـة كـما حـدث مـع صديقتهـن سـها ، التـي قـد تطلقـت قبـل حفـل الزفـاف، وبـدأن يـسردن لحسـناء مـا قـد تحملتـه سـها مـن مضايقـات ، وأصبحت مسـألة أن يتقـدم لطلـب يدهـا أحـد أمـر نـادر ، نظـراً لأننـا مجتمعـات تنبـذ المطلقـة حتـى وإن كان زواجهـا لم يكلـل بحفـل زفـاف ، ويقولـن ذلـك بالطبـع فقـط لتهدأتهـا ، وإعانتهـا عـلى الصـبر ..

فتاة من زمن آخر

وفي وسط زخم من الأفئدة المنكسرة ، تستوقفني فتاة من المهددات بالإنقراض تقطن في ذلك الحي ، لا تتحدث إلى شاب غريب ، ولا زميل دراسة أوعمل إلا للضرورات ، وتخشى على قلبها كثيراً ، تُساعد من يحتاج إلى مساعدة ، وترحل عنه دون إنتظار لكلمة شكر ..

أما بشأن العلاقات العاطفية فقد أخطأت في حق قلبها كثيراً؛ فهي تؤمن بالحب ولكن دائماً ما تتكبر على عواطفها وأحاسيسها ، فكان أي إعجاب تشعر به تجاه شخص ما تكتمه بداخلها ، وذلك بسبب كل ما رأته من قصص واقعية تحدث أمام عينيها في الحي بشأن علاقات الحب والزواج ، وكم تعرض أغلبها للفشل ، فيمكننا القول أنها قد أصيبت بعقدة وحالة نفسية تدعى الفيلولوجيا أي عقد الوقوع في الحب ..

وتمر عليها السنوات مرور البرق ، وتتوالى قصص الفشل العاطفي المكبوتة بداخلها فقط ؛ فهي دائماً بطلة لأي قصة عشق من طرف واحد بحكم خشيتها التجربة ، فإذا حاز أحدهم على

إعجابها تفشل كالعادة في إيصال مشاعرها له ، وتفضل الكتمان كما سبق وأن ذكرنا، ومن ثمّ تأتي من هي أقل منها أدباً وعلماً وجمالاً لتسرق حبيبها منها ؛ حيث تهمس له بكلمات الحب التي يفتقدها، والتي قد عجزت ذات المبادئ عن النطق بها ، وتتملق له اللعوب بإسلوبها الزائف وتستميله ، ربما لتتخلص من لقب (عانس أوبايرة)، أو لكي تستنزفه مادياً وتفوز برهانها مع صديقاتها المريضات وتثير غيرتهن ، فللأسف لا أحد يحب بصدق مثل فتاتنا هذه ...

وتقف فتاتنا المسكينة لا تملك إلا أن تلوم نفسها ، وتتخبط من مفاسد المجتمع ، وتتشك وتتسلل الريبة إلى قلبها ؛ وتتساءل: هل الإلتزام الأخلاقي هذه الأيام أصبح تعقيداً !! هل تتمسك بمبادئها أم تنساق ورائهم وتتخذ من اسلوبهم منهجاً جديداً يصلها بفارس الأحلام !!

وما بين القلب وأهوائه ، والعقل والمبادئ الأخلاقية السليمة ، تظهر معادن النفوس ، ودائماً تردد الفتاة القوية : سأظل كما أنا فدائماً ما عند الله خير وأبقى ..

ولا أحد يستشعر كم هي جميلة دواخلها ، فكلما رآها طفل تعلق بها ، فكما نعلم أن الأطفال يتمتعون بالشفافية وصدق القلوب وخلوها من الرياء ، حتى يكبر ويعلمه أحدهم ذلك ، وكأنهم تعمقوا في دواخلها وأدركوا ما لم يدركه الكثيرين عنها ، في ظل مجتمعاتنا المغلفة بالمظاهر ، وسيادة نمط اللهث وراء أي شئ يلمع

حتـى ولـوكان كاذبـاً ..

ونجـد أن هنـاك طفـل رغـم أنـه رآهـا منـذ سـنوات عـدة ، قـد تذكرهـا رغـم مـا يصعـب عـلى ذاكـرة الطفـل أن يذكـره ؛ حيـث قابلهـا بنفـس اللهفـة ؛ فهكـذا الحـب النابـع مـن القلـب لا يعـرف ذاكـرة قويـة أوضعيفـة ، ولا يعـرف المسـافات ولا يعـي مـرور الزمـن ، فـلا نؤمـن في الحـب بمقولـة (البعيـد عـن العـين بعيـد عـن القلـب).
فكانـت فتاتنـا هـذه تُدعـى - رهـف - كانـت يتيمـة الأبويـن، تقطـن في غرفـة فـوق سـطح منـزل أم فـاروق بعـد أن اسـتولى أقربائهـا عـلى ميراثهـا في صغرهـا ، فقـد تربـت في أحـد الملاجـئ، ورغـم ذلـك ظلـت صامـدة رغـم أنهـا أكثرهـم معانـاة ، فبعدمـا أنهـت دراسـتها ، فكانـت توفـق بـين الدراسـة والعمـل ..

ونسـيت أن تعيـش الحـب وتجـد تـؤام روحهـا ، فقـد كفـرت بالحـب تمامـاً نظـراً لكـثرة مشـكلات المرتبطـين ، فقـد مـرت بتجربـة مريـرة جعلتهـا تعـي أن الحـب عـلى أرض الواقـع ومجتمعنـا ، يقتـصر الحـب فيـه عـلى لحظـات الرغبـة والشـهوة والممنـوع المرغـوب ..

ولا يعـي الكثـيرون أن الحـب اهتـمام ، كـما أن الفتيـات في مجتمعهـا ليـس مـن حقهـن في الكثـير مـن الأحيـان ، أن يخـترن شريكهـن في الحيـاة، فيتعرضـن لضغـط كبـير مـن أهلهـن حينـما يتقـدم لخطبتهـن شـخص غـير الـذي قـد اختارتهـن قلوبهـن ، فأغلـب الفتيـات ينصاعـن لقـرارت أهلهـن ، ومـن يعترضـن يعانـين مـن الكثـير مـن المشـكلات ، التـي ربمـا تتسـبب في خسـارتهن للعلاقـات الوديـة مـع أهلـن ، فيتـبرأ

الأهـل عـادة مـن الفتـاة التـي تعـترض عـلى مـن يختارونـه كـزوج لهـا .. ومـن ناحيـة أخـرى أن أغلـب الشـباب في مجتمعنـا عندمـا يشـعرون باطمئنـان لمشـاعر مـن يحبونهـا ، يتكاسـلون عـن المحاولـة والاجتهـاد مـن أجـل الحصـول عـلى حـب حياتهـم ..

وبعـد عـدة تجـارب كانـت تنشـد منهـا أن تتـزوج وتحصـل عـلى الاسـتقرار والجـوالأسري الـذي لطالمـا افتقدتـه، آمنـت رهـف أن مـن يريدهـا ، لـن يـتردد لحظـة في أن يتقـرب منهـا ، وسـيقوم برفـع رأسـها أمـام الجميـع ، لـن يجعلهـا تنتظـر رسـائله ، لـن يـترك دموعهـا تنـذرف ليـلاً مـن الألم الممـزوج بالخـذلان والاشـتياق في نفـس الوقـت ، لـن يجعـل الوقـت يـأكل قلبهـا ، ولا الدمـوع تـسرق نضارتهـا وجمالهـا..

فكانـت قصـة كفـاح رهـف تلـك المسـكينة الوحيـدة تتلخـص في أن نيتها كانـت سـليمة طيبـة رغـم مـا تتمـع به مـن ذكاء ، فرغـم إرتفـاع درجات الحـرارة إلا أنـك قـد تشـعر بالـبرد الـذي قـد يرتجـف لـه جسـمك ، وتضطـر إلى إرتـداء ملابـس ثقيلـة ، أوقـد تضـع غطـاء أثنـاء نومـك ، ليـس لحالـة إعيـاء أوبـرد ملمـوس شـعر بـه مـن حولـك ؛ ولكـن هوفقط عـدم الشـعور بالأمـان..

ورغـم أن الإبتـلاءات في ظاهرهـا أمـور محزنـة وكانـت رهـف مـن الضعيفـين – المـرأة واليتيـم كـما ورد في أحـد الأحاديـث النبويـة الشريفة - لكنهـا تتوغـل بداخلـك لتخـبرك كـم أنـت قـوي ، لتزيـد مـن إيمانـك ، وتعقلـك في فهـم الأمـور ، وتحـد مـن حماقاتـك ، خاصـة وإن كنـت في سـن صغـيرة ..

فنحـن في حيـاة بعضنـا البعـض بمثابـة إبتـلاءات ، البعـض يُحسـن

دخولـه حياتنـا ، والبعـض الآخـر لا ينفـك عـن اقتفـاء أثـرك ، إذا وجـد منـك تقدمًـا أومحاولـة للخـروج عـن إطـار المألـوف ، يسـعى جاهـدًا لتحطيمـك ، وإرجاعـك إلى نقطـة البدايـة ، فـلا شـئ يعطـل وقـد يمنـع الإبـداع ؛ بمثابـة السـخرية مـن أفـواه لئيمـة محبطـة ..

ولعـل تلـك الفتـاة -رهـف- تختلـف عـن الكثيريـن مـن بنـات جنسـها؛ فقـد أصبحـت لا تعتقـد بأنـه قـد يوجـد مـن الشـباب مـن هومتيـم بهـا ، حتـى وإن أغدقهـا بكلـمات الحـب ، وقـد نجدهـا تسـخر منهـا، ولا تسـتطيع أن تتمالـك نفسـها مـن الضحـك ، عندمـا يعـبر لهـا أحدهـم عـن مشـاعره وأحاسيسـه ، ليـس لعـدم ثقتهـا بنفسـها أوبالآخريـن ، ولكـن لا حـب حقيقـي هـذه الأيـام ..

فلـم تقابـل مـن يعـي مفهومـه الصحيـح بعـد ، فلطالمـا وجـدت نفسـها وحيـدة لا أحـد عـلى الاسـتعداد أن يكـون بقربهـا مادامـت ظروفـه وآهوائـه لا تسـمح ، في الوقـت الـذي تحتـاج إليـه بشـدة ، لذلـك لم تتعاطـف يوماً مـع أحدهـم رغـم أن لديهـا قلـب كبـير ، فكـما أسـلفنا الذكـر كانـت تحتفـظ بمشـاعرها لنفسـها حتـى تجـد مـن يُقـدر شـخصيتها ، وبإمكانهـا القـول إنهـا لم تقـع في الحـب يومـاً ..

الفشل الأول

ولكـن مـاذا عـن ذلـك الشـاب !!! ... نعـم كانـت تظـن أنهـا عشـقته حتـى الثمالـة ، وفي كل مـرة تبـدي إعجابهـا بشـخص ، وتقـرر أن تعطيـه فرصـة ، تعتقـد أنهـا قـد وصلـت أخـيراً لدرجـة الحـب والعشـق، ولكنهـا أحببـت تلـك الشـخصية مـن آحاديثهـم ، وقـد اكتشـفت مؤخـراً أنهـم كاذبـون ، وتأكـدت مـن كذبهـم عندمـا تقربـت مـن شـخصه ، وهـي الآن لم تعـد تفكـر بـه ويمـر بجانبهـا ويحادثهـا فـترات طويلـة ، وكأنهـا تتحـدث لمـار أوعابـر في الطريـق لا تعرفـه ، ولا تكـترث لأمـره البتـة.

وتتـوالى الأحـداث لنجـد أن هـذا الشـاب قـد ارتبـط بأخـرى ، ومـا يثير عجـب فتاتنـا هـذه ، بأنـه عندمـا يراهـا يشـعرها بأنـه قـد انتـصر ونجـح بالفعـل في تحطيـم قلبهـا ؛ فـإذا بهـا تقـول بصـوت لم يسـتطع لسـانها أن يكتمـه : « يـا لحماقـة شـخص قـد نـسي أنـه قـد سـمي بإنسـان لنسـيانه » ..

وعـلى جانـب آخـر كان لديهـا صديـق تحـكي لـه عـن دواخلهـا ، كانـت

منـذ البدايـة تعتـبره - أخـاً وصديقـاً - ، ولكـن حـين انشـغلت عـن التواصـل معـه لفـترة مـن الزمـن ، تفاجئـت بـه يكتـب عـلى حائطـه : « نحـن نرتقـي برحيـل الآخريـن» ، فـإذا بهـا تهمهـم قائلـة : «مـا هـذا الوهـم بحـق الحجيـم » ....وهويـردد في داخلـه والقلـب مفطـور : « هذا يا عزيزتي حباً حقيقياً لكنه من طرف واحد والآخر مقطوع»

عـن تلـك الفتـاة –رهـف- التـي لا تعـرف فى الحيـاة سـوى الجـد والاجتهـاد ، فطالمـا كانـت تحـدى لأغلـب الشـباب الذيـن تقابلهـم فى حياتهـا ، حتـى أول حـب فى حياتهـا كان شـاباً اعتبرهـا مجـرد رهـان لإرضـاء غـروره؛ ولأن قلبهـا نقـي يتنبـه لأي شـائبة وتتمتـع بشـفافية كبـيرة كشـفت ذلـك الرهـان الدنيـئ ، فتجاهلتـه تمامـاً حتـى خـسر الرهـان ، ولكـن للأسـف قـد تمكـن حبـه مـن قلبهـا ، ولكـن كُتـب عـلى ذلـك الحـب ، أن يكـون حبـاً صامتـاً تكتـم أنفاسـه بكفيهـا كي يختنـق ويمـوت ، وأشـعره تجاهلهـا بتفاهتـه وابتعـد وسريعـاً خطـب أخـرى وتزوجهـا .

الفشل الثاني

فعندما فتحت نوافذ الذاكرة ، وهاجمتها لحظة مظلمة ، فتذكرت أنها ليست عاثرة الحظ في حياتها العاطفية فحسب ؛ وإنما لحقها الحظ العاثر لحياتها الأسرية ، ولكن دوام الحال من المُحال ، فقد تحولت مُجريات الأمور في حياتها ، فقد ظهرت بُشرى جديدة ، أوكما كانت رهف تعتقد ، كانت لديها بمثابة رؤية بالخير تتحقق بمجرد أن يستيقظ الرائى من نومه ، ودعوة مظلوم لا ترد من الواحد الصمد ، تعويض من الله وبشرى فرح تأتي قبل أن تسقط دمعة ذلك المظلوم على وجهه ، ونصر مكتسح يحرزه المظلوم يوم احتفال الظالم بظلمه وقهره ، نصر يجعل الناس لا تعترف إلا به، ويستخفون بما حققه الظالم من نصر ، فيُفقد لذة نصره .. إنه الإيمان بقدرة الله ... يقينى بالله يقينى .

فبعد فترة ليست بقليلة تخطت رهف الأزمة ، وسمت على عواطفها لشخص كاذب لا يستحق ، نجد بشائر الحب الجديد تتطرق إلى قلبها ، فإذا بشاب يقتحم حياتها من جديد ، فقد جاء في زيارة إلى منزلها ؛ حيث أنه أخبر إحدى صديقاتها أنه يود الزواج

مـن هـذه الفتـاة ، وبالفعـل خرجـت مـن غرفتهـا لتقابلـه ، وإذا بقبـول وإعجـاب قـد غمـر قلبيهـما ، وكأنهـا لم تعـرف الحـب يومـاً، فارتمـت في أحضـان ذلـك الحـب الجديـد كي تنـسى التجربـة السـابقة التـى بـاءت بالفشـل ...

وبعـد أن تعلـق قلبهـا بذلـك الفتـى الجديـد تدخـل أجـواء الإثـارة في الموضـوع ، فقـد شـعرت صديقتهـا تلـك بالحقـد والحسـد ، فمـن وراء فتاتنـا المسـكينة أخـذت تدبـر المكائـد ، وعكسـت تمامـاً انطبـاع ورأي العريـس عـن تلـك الفتـاة ، فقـد روت أكاذيـب تعبـر عـن عـدم إعجابـه برهـف شـكلاً وموضوعـاً ..

وفي حـين كان العريـس ينتظـر بشـغف رأى رهـف ، أوغـرت الصديقـة صـدره بـكلام غـير حقيقـي هوالآخـر ، وأخبرتـه كذبـاً أن تلـك الفتـاة لا تريـده وقللـت مـن شـأنه وأعابـت فيـه ، ولم تنتـه مكائـد تلـك الصديقـه العـدوة عنـد هـذا الحـد ، فقـد أسرعـت في تعريفـه بفتـاة أخـرى تتنفـع مـن وراءهـا ، ولـكي تُـسر وتسـعد بانكسـار رهـف ، فلطالمـا كانـت رهـف مشـهود لهـا بأنهـا هـى الأكـثر خلقـاً وعمـلاً وجـمالاً ...

فالفتاة التي استبدلاها برهف تزوجته فحسب لتتخلص من لقب (عانـس أوبايـرة) ، رغـم أنـه ليـس كفـواً لهـا ، فـكان أقـل منهـا تعليـماً وثقافـة ومـالاً ، ولكـن كانـت عـلى أمـل أن يرتقـي ، وكانـت توهمـه أنـه لا أفضـل منـه ، وهكـذا تبـدأ تلـك الزيجـة بالكـذب والنفـاق ..

وهـو: تزوجهـا لـكي لا تثقلـه ماديـاً ، رغـم أنـه يعـي أنهـا ليسـت بفتـاة أحلامـه ، وليسـت مثـل رهـف ، ليسـت بالجميلـة التـي لطالمـا أحبهـا وراودت أحلامـه ، عـلى أمـل أن يجعـل المـال مـن تلـك الثريـة امـرأة

أجمـل ...

ولأن الحـب والإرتبـاط بينهـما رغـم أنـه في ظاهـره حبـاً ، كان في باطنـه عقـداً مشروطـاً ، فقـد حمـل في طياتـه منـذ البدايـة الفشـل مـن البدايـة، فقـد حرمتـه نعمـة الأبـوة ، فكانـت تفضـل عملهـا عـلى إنجـاب الأطفـال ، ومـع تـوالي الصراعـات والجـدال غـير المجـدي ، تخـبره أنـه لم يكـن يومـاً كفـواً لهـا ، وهـي مـن صنعـت منـه شـخصاً مرموقـاً ..

ويفيـض بـه الأمـر وينفجـر قائـلًا : بأنهـا أيضـاً غـير جديـرة ولا تليـق بـه؛ فهـي الأقـل جـمالاً بـين الفتيـات الـلاتي قابلهـن طـوال حياتـه ، وأنه قد تحمل بما يكفي غرورها وتعاليها ، وأنه أهدر شبابه وحياته معها ..

وبعـد عودتـه مـن تلـك التجربـة الفاشـلة ، حـاول العـودة إلى حبيبتـه السـابقة – رهـف - تلـك التـي تركهـا خلفـه ، تركهـا تتعـذب عـلى رمـال رحيلـه مـن أجـل الثريـة التـي تتحمـل عنـه الأعبـاء الماديـة ، وترفعـه وتجعل نجمه يسطع في عالم الأعيان والأثرياء ..

عـاد ليخـبر الحبيبـة المنكوبـة – رهـف - التـي تعرضـت لأكـبر صدمـة في حبيبهـا ، عـاد ليخبرهـا كـم أنـه مخطـئ في حقهـا وأن لا فتـاة مثلهـا .. ولكـن بعـد مـاذا ! فجـاء ردهـا عليـه : عليـك يـا عزيـزي أن تنتظـرني أجـرب مثلـك ، وأعـدك أننـي لوفشـلت في تجربتـي بأنـك أول مـا أفكـر بأمـره ، و«بلهجـة حـادة » تكمـل حديثهـا قائلـة : اعتـذر فقـد عـثرت عـلى حـب حقيقـي ، شـخصاً لا يـرى غـيري ، ولا يؤمـن بتجربـة إلا معـي

فعـلى الرغـم أن رهـف قـد اسـتردت كرامتهـا ، وأن الزمـن قـد انتقـم لهـا شر انتقـام ، إلا أنهـا قـد كذبـت وادعـت أن هنـاك حـب حقيقـي دخـل حياتهـا ، ولكنهـا اضطـرت لهـذا الكـذب ، حتـى لا يظـن أنـه قـد تركهـا وحيـدة ..

هكـذا تتكـرر مأسـاة رهـف وتفشـل عاطفيـاً للمـرة الثانيـة ، ونجـد بـين الحـين والآخـر تزورهـا اللحظـات المظلمـة لتخبرهـا بأفـكار تحمـل الكثـير مـن التشـاؤم والغرابـة ، تحقـر مـن الجانـب الأنثـوي لديهـا وتخبرهـا أنهـا رغـم نجاحاتهـا ؛ فإنهـا سـتبقى وحيـدة إلى نهايـة العمـر ، ولكـن نفسـها الذكيـة وإرادتهـا الصلبـة تعيدهـا إلى صوابهـا ، وتـضرب روح اليـأس لديهـا فى مقتـل ..

انتفاضة

فنجـد رهـف تفيـق وتنتفـض فقامـت بإعـداد برنامجـاً وخططـاً مسـتقبلية ، تحقـق لهـا المجـد والشـهرة ، وبالفعـل تحركـت مـن أجـل تحقيقهـا بخطـى ثابتـة ومنتظمـة لنجدهـا الآن إحـدى نجـمات المجتمـع، لم تنتقـم ولم تذهـب لتلـوم عـلى أحدهـم ، بـل أدركـت أن خـير وسـيلة لجعلهـم يندمـون ، ولجعـل الجميـع يفكـرون ألـف مـرة قبـل أن يسـعوا لكـسر قلبهـا هـى تحسـين الـذات ، فتحسـين الـذات سـلاح لا يوجـد أقـوى منـه يقتـل دون إراقـة الدمـاء ، ودون تلويـث اليـد بـدم عدوحقـير ، ويرفـع صاحبـه إلى القمـة ويحافـظ عـلى رقيـه وسـمو اخلاقـه ..

وبعـد مـرور أعـوام حققـت فيهـم رهـف أمنياتهـا ، ووضعـت نفسـها عـلى أول درجـات سـلم المجـد ، وقـد حافظـت عـلى حـب الخـير في قلبهـا ، فقـد أسـهمت كثـيراً في مجـال الخـير والتكافـل الاجتماعـي؛ فهـي تحـس بسـعادة غامـرة عندمـا ترسـم الفرحـة عـلى وجـه كل محتـاج ، ولكـن لازال بداخلهـا الشـعور المُلـح والطمـوح لتكويـن أسرة ؛ فهـي دوماً تفتقـد الجـوالأسري ..

كانت رهف تريد أن تشبع بداخلها الرغبة في الأمومة ، ترغب في أن تتزوج وتجد شريك يحبذ الاستقرار ويتعامل باحترام ، وأن تنجب أطفالاً تربيهم بشكل مثالي ، و تبث فيهم مبادئها وتعلمهم ، وتثقفهم على أعلى المستويات ، يشبعون رغبتها في العطاء في الصغر ، ويؤنسون وحدتها وعجزها في الكبر ، فالكل يتقرب منها ويتملقها، والحقيقة أن ما يروقهم فيها هونبوغ عقلها ، فهم بحاجة دائماً لتلك العبقرية في الدراسة خاصة عند تأدية الفروض المدرسية ..

وحتى عندما انتهت فترة الدراسة لم تنته حاجتهم زميلاتها وصديقاتها ؛ فهي أيضاً كانت ضليعة في حل المشكلات الاجتماعية؛ فكانت لهم بمثابة سلة للهموم ، ولكن ماذا عن همومها !!! من يكترث لأمرها !!!..

وكانت في الوقت الذي ترتشف فيه القهوة ، وتمكسك بقلمها لتسجل في مدونتها كلاماً من أجمل ما قيل عن الحب ؛ فهي تحاول دوماً الإجابة على كل أسئلة المحبين والعاشقين وتسعى لحل مشكلاتهم ، كان لا أحد يعلم حتى الآن أنها تعطي شيئاً فاقدة له ..

مكيدة صديقة

وفي هـذا الزمـان تسـود سـمات باليـة غريبـة عـن عاداتنـا ، ومفاهيمنـا التـي لطالمـا سـادت مجتمعنـا كبرنـا وتربينـا عليهـا ، فلـم يعـد هنـاك عجـب مـن أن تكتشـف أن طبيعـة عـدد لا بـأس بـه مـن الفتيـات أصبحـت مشـابهة لطبيعـة أغلبيـة الرجـال ؛ فمنهـن مـن اكتسـبن المميـزات في الاعتـماد عـلى النفـس ، وشـق طريقهـن في العمـل وتحقيـق الانجـازات ، ومنهـن مـن اكتسـبن أخطـر عيـوب الرجـل الشرقـي مـن تعـدد العلاقـات مـع الجنـس الآخـر والاسـتهتار بـكل مـا هـو يحفـظ للفتـاة عفتهـا وكرامتهـا ..

فنجـد تلـك الفتـاة اللعـوب – نسـمة - تتحـدث بنفـس العاطفـة ، وتوهـم أكـثر مـن شـاب في ذات اللحظـة ، وأيضـاً تتـصرف بدنـو نفسـها بشـكل عـدائي تجـاه أي فتـاة تتقـي اللـه ، محاولـة الإيقـاع بهـا في دوامـة الفسـاد، التـي قـد غرقـت فيهـا ، حتـى تـسرق مـن تلـك الفتـاة – رهـف بريقهـا ، وتقـضي عـلى تميزهـا ، فيصبحـا في كافـة واحـدة وذلـك باقناعهـا أنهـن أصبحـن صديقتـين متحابتـين..

وعـلى الجانـب المعاكـس نجـد رهـف تعمـل جاهـدة ؛ فهـي تمتلـك قلبـاً معطـاءاً عـلى الـدوام ، والوقـت يمـر ، والروتـين أصبـح نمـط حياتهـا،

ولأن الذئب يأكل من الغنم القاصية ، والشجرة المثمرة يتم رميها بالحجارة ، تعرضت رهف لمكيدة من نسمة - جارتها الأمية لم تلتحق بأي مدرسة .

فعلى الرغم من ثراء أهل نسمة ، إلا أنهم يرفضون تعليم بناتهم، فإنهم غاية في البُخل والشُح والجهل ، فكانت رهف تتعاطف مع نسمة ، وكانت ونعم الجارة ، تقرأ لها أي أوراق ، وتعرفها وتوعيها بمجريات الأمور حتى لا تتعرض للاحتيال ..

وتقوم رهف بتعليم نسمة القراءة والكتابة ، ولكن الغل قد استحوذ على قلب نسمة ، فكلما عاونتها رهف نظرت نسمة إليها نظرة تملآؤها الحقد والحسرة ، وكانت رهف تتغاضى وتفترض حُسن النية ، فعلاقتها بنسمة لا تتعدى أن رهف تحب عمل الخير بطبيعتها ..

ولأن الحكمة الشهيرة تقول « اتقِ شر من أحسنت إليه» ، فقد كانت نسمة ذات سلوك غير سوي ، تتصرف مع الشباب كالعاهرات، في حين أنها قد تكبرت على حسن ابن عمها ، ذلك الشاب الملتزم دينياً وأخلاقياً ؛ فكان لا يعجبها لأنه لا يجيد كلام الحب كباقي الشباب ..

وكانت تعشق من يرمي المال لها في حين أن حسن شاب في مقتبل حياته مرتبه محدود ، ويريد أن يدخر المال ليتقدم لخطبتها ، ولكنها لا تستحق حبه فقد كانت على علاقة بشاب ثري ، وكانت

تحدثـه دومـاً عـن رهـف وكفاحهـا وإنجازاتهـا بالرغـم مـن الصعـاب التـي واجهتهـا ، وأن رهـف وحيـدة يتيمـة الأبويـن ، وعرضـت نسـمة رهـف لموقـف محـرج ؛ حيـث أعطـت عنـوان رهـف لذلـك الشـاب ، حتـى تتمكـن مـن مقابلتـه بشـكل لا يجعـل أهلهـا يتشـككون بهـا ؛ فهـي أمـام أهلهـا ذاهبـة لزيـارة رهـف ، ولكـن الحقيقـة أنهـا ذاهبـة لرؤيـة هـذا الشـاب ..

ولأن الحقـد يـأكل في النفـوس كـما يـأكل الصـدأ الحديـد ، وكـما تشـتعل النـيران في الحطـب ، كانـت تلـك الفتـاة -نسـمة - تتلصـص عليهـا ، وتتقـرب منهـا غـيرة وحقـداً لا حبـاً ، فدائمـاً تضـع نفسـها في مقارنـة معهـا بـدلاً مـن أن تخطوبنفسـها خطـوة للأمـام ، ترفـع مـن شـأنها وتجعلهـا في مرتبـة واحـدة عـلى الأقـل ...

وحـين سـمعت رهـف البـاب يطـرق ، فهبـت لفتحـه كانـت معتقـدة أن نسـمة هـي مـن تطـرق البـاب ، ولكـن تراجعـت خجـلاً عندمـا رأت أن مـن يطـرق البـاب كان شـاباً ، وأوضـح لهـا ذلـك الشـاب سـبب مجيئـه بمنتهـى الوقاحـة ، وكان يرغـب بالدخـول ، ولكـن تصـدت لـه رهـف ومنعتـه مـن الدخـول ، وأخرجـت لـه كـرسي مـن غرفتهـا لجعلـه يجلـس في الخـارج عندمـا أصر عـلى انتظـار نسـمة ، ثـم دخلـت رهـف لغرفتهـا وأغلقـت عـلى نفسـها وتركتـه ينتظـر مـن جـاء لأجلهـا ...

ولمعـت عـين ذلـك الفتـى الـثري ، فكأنـه وجـد لقمـة وفريسـة سـائغة ؛ لاسـيما عندمـا تذكـر أنهـا وحيـدة ، فقـد آثـاره كثـيراً تحفظهـا وتمسـكها بأخـلاق نـادرة الوجـودة هـذه الأيـام ، فاتفـق مـع نسـمة مقابـل مبلـغ

كبير بأن تستدرج رهف ، وتجعلها توافق بأن تذهب إلى منزله؛

حيث أنه يشتهي معاشرة فتاة عذراء خجولة ومتحفظة ؛ مثل رهف ..

ولكن رهف كعادتها ترفض بيع نفسها ، فهي تخاف الله ، وتعي وتدرك تماماً أن الجواهر لا تُعرض للناس ، ولا يقتنيها إلا من يستحقها ويُقدر قيمتها ؛ فمهما قابلت شاباً مثيراً ، ومهما كان احتياجها العاطفي ؛ فهي لا تسلي شاباً ...

صدمة . .

وكانت صدمتها الحقيقية ؛ أنها بعد رفضها لعرض نسمة وذلك الشاب الفاسد ، أخذت نسمة تروج الإشاعات عن رهف ، وأخذت ذلك الشاب ودخلت لأم فاروق تقنعها أن رهف ، تسمح بدخول الشباب لغرفتها ، وبينما كانت رهف تبكي بحرقة من شدة الظلم أمامهم ، تحرك ضمير ذلك الشاب ، وقام بتفنيد كل ما ذكرته نسمة من إفك وكذب ..

وعادت اللحظات المظلمة تُباغت رهف بين الحين والآخر ، فانعدمت ثقتها في الجنس البشري كله ، وانقطعت عن التواصل وانعزلت لفترة ، ولكن كان هناك ثمة استثناء ، ذلك الاستثناء يأتي كالعادة في نفس الميعاد كل يوم ، وينتظر أن تطل له رهف من النافذة ، لتلقي بيديها الرقيقتين نفحاتها ، وعندما يراها في أحد الشوارع ، لا ينساها فينظر إليها بكل إمتنان ، فإنه ليس كالآخرين لا ينسى معروف قد فعله أحدهم لأجله ؛ إنه الكلب مثال الوفاء وتقدير الإحسان ، فلطالما كان ذلك الكلب يجلس تحت المنزل ، ولطالما طلت رهف من نافذة غرفتها لتلقي له الطعام ..

ورغم أن الموقف - تلك المكيدة التي قمت بها نسمة – قد مر

بسلام ، وكان ستر الله وعدالته رفيقتا رهف ، فقد باتت رهف تخشى على نفسها كثيراً ، ورأت أنها تحتاج للأمان ، ولأن المجتمع يضطهد اللقطاء والأيتام ، ومن ليس لهن ظهر يحميهن ، فسرعان ما أفاقت من هلعها وصدمتها ، ورأت أن ذلك الموقف نذير لها، وأن الضرورة تدعوللبحث عن شريك وزوج تختاره بشكل عقلاني، حتى يكون لها أماناً وسنداً وظهيراً قوي ، يجعل من يريدون أذيتها يفكرون آلاف المرات ، قبل الشروع في مضايقتها حتى ، ولا داعي لوضع الحب شرطاً ، في ظل الوحوش التي تحيط بها ، فالحياة أصبحت غابة والبقاء للأقوى ...

وتذكرت كذلك معاناتها مع المرض في إحدى الفترات ، عندما كانت طريحة الفراش ، فقد نال منها التعب ، وتملك منها المرض ، وهي تتوقع أن تجد شخصاً واحداً على الأقل يقف بجانبها ، يذهب ليحضر لها الدواء ، يطمئن عليها من حين إلى آخر ، ولكن نجدها تُجاهد نفسها وتتناسى مرضها ، وتقوم لأداء واجباتها ، وإذا أحست بشئ من الإعياء ، تعطي نفسها الدواء بنفسها ...إلخ.

تذكرت والذكريات كثيرة ومؤلمة ؛ فبينما كانت تنبع من الفؤاد آناته كانت رهف هي التي ابتسمت لأحزانها ، والقلب يُعاني أسوأ حالاته ...

فكرة مجنونة

وبعد مدة طويلة من التفكير، ومحاولة تدبر الأمور، قفزت لرأس رهف فكرة غريبة ، لا يتم طرحها سوى في الأفلام ، لن تصلح سوى للروايات ، خاصة أنها لم تجد من يحبها حباً حقيقياً بعد ، فقد فكرت بأن تجد لنفسها زوج للإيجار ، تتزوجه بشكل صوري ، يكون زواجهما حبر على ورق ليس إلا ..

فكانت رهف ترى أنه قد نتقبل أن يظهر أحدهم عدم تقبله لنا ، وقد نتقبل عدم مبادلته نفس المشاعر التى نكنها له ، فكل انسان حر في مشاعره ، ولكن غير مقبول تماماً ، جعل الآخر يتوهم الحب منا ، وفي نهاية المطاف نلومه على تلك المشاعر البريئة ، ونجعله يرتاب في نفسه لمجرد أنه تصرف بتودد لأحد ، قد بدأ هوبإثارة المشاعر وصرح بالحب أولاً ، فقد أخذت العلاقات العاطفية الفاشلة من وقتها كثيراً ، فحب للإيجار نيته واضحة لا إيهام فيه أفضل من تمثيل دور العاشقة المتيمة على قلب آمن لم يفتعل شيئاً لاجتذاب أحدهم ..

وظلت هذه الفكرة عالقة برأسها حتى ظهر أمامها شاباً يُلاحقها، وأخذت علاقتيهما بادئ الأمر شكل الصداقة ، وكان ذلك الشاب

رحيـم يتابـع أعمالهـا ودائمـاً مـا يُحـاول التقـرب منهـا ، وعندمـا صرح لهـا بمشـاعره رأت أن تُعطيـه فرصـة ، وبـدأت تتعـرف إليـه بالفعـل .. والحقيقـة أن لرهـف قـدرة وإحسـاس عـالي في الحكـم عـلى الأشـخاص مـن المـرة الأولى، فلـم تُصدقـه منـذ الوهلـة الأولى، وتعـي أنهـا لا تقـع في غـرام شـخص إلا بعـد فـترة، تقـع في الحـب حينـما تحـس بصدقـه فقـط، وكـما ذكرنـا فـإن نيتهـا منـذ البدايـة البحـث عـن زوج لا حبيـب، فلـم يذهبهـا حبـه عقلهـا ولم تثمـل منـه، وبعـد مباحثـات كثـيرة عنـه، ومعرفتهـا بعلاقاتـه السـابقة والمريبـة ، اكتشـفت أن اختيـاره لهـا ليـس نابعـاً مـن الحـب الـذي هاجـم قلبه بغتـةً ، ولكنـه أخطأ كثـيراً في علاقاته لاسـيما أمـام أهلـه ، فـأراد أن يختـار اختيـاراً صحيحـاً منطقيـاً ومدعـاة للفخـر ، حتـى يمحوالأفـكار السـيئة التـي انتـشرت عنـه في الفـترات الأخـيرة ، فكانـت رهـف هـي المختـارة ، وفي بـادئ الأمـر صُدمـت رهـف لتفكـيره هـذا بهـا ، ولكـن سرعـان مـا تذكـرت أن هدفهـا الأول والأخـير إيجـاد زوج ، يكـون أمانـاً لهـا ..

وبـدأت رهـف تفيـق إلى نفسـها، وتتعامـل مـع الموقـف بعقلانيـة ، وتتقبـل عيوبـه الكثـيرة ، محاولـة وضـع شروط لعلاقتيهـما ، فتغاضـت عـن الكثـير مـن تلـك المثالـب والعيـوب..

ولكـن ميولـه التعدديـة اسـتحالت الأمـر بينهـما ، ورغـم وقـوع رهـف في حبـه بالفعـل ؛ فهـوأول مـن جعلهـا تفقـد عقلانيتهـا في اختيـار شريـك حياتهـا ، فقـد أحبتـه وحسـب ، ورغـم أنـه تخـلى عنهـا ، ولم يسـتطع أن يتخـلى عـن العاهـرات اللـواتي يحطـن بـه ..
فاختـارت رهـف إنهـاء مـشروع الـزواج بينهـما ، وتصرفـت برقـي بالـغ

في الفـراق ، فلـم تعاتبـه بكلمـة واحـدة ، ولم تلزمـه بشـئ أوتلومـه عـلى كـثرة وعـوده التـي لم ينفـذ منهـا شـئ ، إلا أنـه بمـرور الوقـت كان شـعورهما بفقـدان روحيهـما هـو السـائد ..

فلطالمـا افتقـدت رهـف جنونـه وعشـوئيته في التـصرف ، فلـم يسـبق وأن اعطـت فرصـة لشـاب مثلـه ، تعـودت عليـه وتقبلـت مثالبـه بـل وجملتهـا أحيانـاً ، ومـن ناحيـة أخـرى بـدأ هوالآخـر يتشـكك في صحـة قراراتـه ، ويتسـائل مـا نهايـة معرفـة العاهـرات ! هـل ترقـى واحـدة منهـن أن تصبـح زوجـة ، وأمـاً لآبنائـه في المسـتقبل ! ولم يسـتطع منـع رأسـه مـن أن يُقـارن بينهـن وبـين رهـف ، فكيـف لفـم ذاق العسـل أن يشـعر بحـلاوة مـذاق أي شـئ بعـده !

وحـاولا أن يحافظـا عـلى صداقتيهـما قـدر الإمـكان ، وكأنهـما يحتـالا ويتكـبرا عـلى الحـب ، فمَـن يلعـب بالنـيران حتـماً سـتحرقه ، وسـاد الصمـت الـذي تلتصـق بـه المراقبـة علاقتيهـما ؛ هـي تشـاهده مـن بعيـد يعيـش حياتـه يسـهر ويجـاري العاهـرات حولـه ، وتمثـل عـدم الاكـتراث محاولـة إخـراج طاقتهـا في عملهـا ، تـزاول نشـاطاتها بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة ، رافضـة أن تختـلي بنفسـها مـن أجـل كبـت دموعهـا حتـى لا تشـعر بضعفهـا ، وهويتكـبر عـلى مشـاعره رافضـاً أن تهزمـه فتـاة ، وأن تنجـح في الاسـتحواذ وحدهـا عـلى قلبـه ، ويتعمـد دومـاً إثـارة غيرتهـا بينـما في قلبـه حـسرات ..

وعندمـا جـاء رحيـم بأهلـه ليتقدمـوا لخطبـة رهـف رفضتـه انتقامـاً لكرامتهـا وكانـت المفاجـأة والصدمـة الأولى لرحيـم ، وكانـت الصدمـة الثانيـة الأكـبر لـه ؛ أن أحـد أصدقـاء ذلـك الشـاب قـد حـاول التقـرب مـن رهـف ، وأقـدم عـلى خطبتهـا بالفعـل ، ولكـن رحيـم آثـار معـه

مشكلة كبيرة ، حتى تمكن من إبعاده ، ورأت رهف أن الوضع بينها وبين رحيم قد تفاقم ، وأن هناك شيئاً قد كُسر ..

وكأن الخوف في داخلها أصبح مرض ، لا تريد أحداً أن يقترب ؛ فهي تريده ولا تريده ، تريد شريكاً في الحياة يتفهمها ، ويترك لها حرية التعبير والتعليم ، وإخراج المواهب المكبوتة في ظل ذلك المجتمع المحبط للفتاة ، ولكنها تخشى من أن يكون لديه مفهوم خاطئ عن الارتباط ، ويؤمن بعد أن توفي له احتياجاته ؛ بأن وقتها ملكه فقط ، حتى في الوقت الذي يخلد فيه إلى نومه ..

وأن الغيرة قد تتملكه حتى من أبنائه ، وهي بالطبع تعي واجباتها فلم تبحث أبداً عن الحرية المطلقة ، ولم تدعو للتسيب والتحكمات الفارغة يوماً ، لذلك كانت مدركة للمفهوم الصحيح للحرية الواعية المقيدة بالتمييز والبعد عن الأخطاء ، وعدم التعدي على حرية الآخر ، فمن المستحيل أن تخرج إلا بإذنه ، وستشاركه في كل صغيرة وكبيرة تهم الأسرة ، وستراعي الأبناء ، ولكن أكثر ما تخشاه هل سيترك لها وقتا لممارسة نشاطاتها ، تقرأ وتود الأهل والأصدقاء كلما سنحت الفرصة !!!

زوج للإيجار

فقد عادت رهف لفكرتها القديمة بشأن الزواج الصوري - زوج للإيجار - وتجرأت على إخبار رحيم بنيتها تلك ، وطلبت منه أن يكون زوجاً للإيجار ، يشتركون معاً في السكن وتقوم بخدمته على أكمل وجه ، تُعد له طعامه ، وتقوم بتنظيف وكي ملابسه، ولكن لا حق شرعي له ، ولا يحق له أن يمس شعرة من شعر رأسها حتى ..

ولأن رحيم الذي أخذ رهف في البداية كلُعبة وتسلية وتحدي، أوشئ جديد يريد تجربته ، فلم يخجل من التقليل من جمال رهف أمام أصدقاءه ، ويجهر أنه قد عرف من هن أجمل منها، وسعيه ورائها مجرد إعجاباً بشخصيتها وإنجازاتها في سن مبكرة، نجده الآن قد أصبح مُتيماً بها بالفعل ، وافق رغم أن رجولته وأنفته تمنعاه ، خاصة إن كانت هذه الفكرة الشاذة قد عُرضت عليه من فتاة غير رهف ، وافق كخطوة مبدئية تضمن له قربه منها ، متأملاً أن يجعلها تلين له بعد الزواج ، لاسيما بعد أن يتواجد هو وهي داخل بيت واحد ، وتم الزواج بعد اتفقهما بفترة قصيرة..
كان حفل زواجهما متواضعاً للغاية ، لا مظاهر للفرح فيه خاصة

عـلى وجـه رهـف ، وبعـد أن دخـلا منزليهـما ، حـاول رحيـم تغيـير مسـار مـا اتفـق عليـه مـع رهـف ، فأحسـت رهـف بنيتـه هـذه وأصرت عـلى الامتنـاع عنـه ..

وإذا بجـرس البـاب يـدق ، ذهـب رحيـم لفتـح البـاب ، فـإذا بامـرأة عيناهـا تـدل عـلى احتدامهـا وتذمرهـا ، وقـد طـال حديـث رحيـم معاهـا ، وعـلا صوتيهـما ، فخرجـت رهـف مـن غرفتهـا خاصـة حينـما تأكـدت أن مـن في الخـارج امـرأة ، وفجـأة سـاد الصمـت وكانـت تلـك المـرأة تنظـر لرهـف نظـرة دقيقـة متفحصـة ، وعندمـا سـألتها رهـف : مـن أنـتِ؟ ، رحيـم ! هـل تعرفهـا ؟!

أجابـت المـرأة : أنـا زوجتـه السـابقة ، فقـد تزوجنـي رحيـم قبـل عـام زواجـاً عرفيـاً ، و كنـت حامـل في طفلـه ، ولكنـه أراد الانفصـال وهـدد بعـدم الاعـتراف بالجنـين ، فاضطـررت لاجهاضـه ، وأنـا اليـوم قـد جئـت لأفضحـه أمامـك ، وأحـذرك مـن الانخـداع فيـه..

وردت رهـف تلقائيـاً للحفـاظ عـلى مـاء وجههـا : لم تخبرينـي بشـئ جديـد ، فقـد صارحنـي رحيـم بعلاقتـه بـكِ ، وبـكل علاقاتـه السـابقة، وأنـا سـامحته ؛ شـكراً عـلى زيارتـك ، فانسـحبت المـرأة وخرجـت ، ونظـرة الصدمـة تعتـلي وجـه رحيـم ...

وعـادت رهـف لغرفـة النـوم ، وحينـما لحقهـا رحيـم ودخـل ورائهـا الغرفـة لـكي يـشرح لهـا ويـبرر موقفـه ، مثلـت أنهـا تشـعر بـدوار وعطـش شـديد ، ومـن ثـمّ خـرج رحيـم مـن الغرفـة مسرعـاً ، ليجلـب لهـا كوبـاً مـن المـاء ، وبالفعـل خـرج رحيـم مسرعـاً ، وبمجـرد أن خـرج أغلقـت رهـف البـاب بالمفتـاح ..

وعندما عاد رحيم وحاول فتح الباب ، وعلم أنه موصود من الداخل حاول كسره ، بينما كانت رهف تقف وراء الباب تخبره أنها تعمدت غلق الباب ، ولن تدخله إلا عندما يسمح مزاجها، وإنه إذا كان يملك احساساً فلا ينبغي أن يقترب منها بعد أن تفتح الباب، وتتحدث والبكاء يسيطر على نبرة صوتها ، وتسأله : ماذا تريد مني أنا لست أجمل ممن تعرفهن ! أذهب إليهن ... فأنا أكرهك أكرهك بشدة ، وتنهار من البكاء ، فتوقف رحيم عن محاولته كسر الباب ..

فقد أحس رحيم أنه قد ظلمها كثيراً ، وأنها تمر بأزمة نفسية جراء أفعاله ، فعندما فتحت رهف الباب كانت تعتقد أنه سيأخذها بالقوة ، ولكنها تفاجئت أنه جثى على ركبتيه محاولاً الاعتذار ، وأخبرها أنه سيتركها على راحتها ، ولن يلمسها إلا برضاءها ..

ومرت الأيام ولا يوجد أي تقدم في علاقتيهما ، حتى كانت تضع له الطعام على الطاولة ولم تشاركه فيه، وطوال الوقت كان رحيم يريد أن يكفر عن خطاؤه في حق رهف ، ويجتهد من أجل كسب ودها ، فعندما كان رحيم ورهف في زيارة لمنزل أهله ، جاءت الست أم سعيد - بائعة الملابس – ومعاها مجموعة من الفساتين الجميلة ، وكان هناك فستان غاية في الجمال أصرت عليه أخت رحيم ، لكن مقاسه غير مناسب معها ، أصرت والدته أن تقوم رهف بقياسه ، وبالفعل قامت رهف بارتداءه ، وكان عليها في قمة الجمال والروعة، وكأن الفستان قد تم تفصيله لأجلها ، فلم يتردد رحيم في شراء الفستان ..

أمسية غير معتادة

وفي وسط حالة من الفتور في العلاقات ، والجراح التي أوغرت صدور المحبين ، فقد يكون هناك احترام بدون حب ، ولكن حتماً لا يوجد حب بدون احترام ..

وبعد أن فند القدر الكثير من معتقدات أم فاروق وأم حسين ، وبعد أن قامت مشكلة كبيرة بين فاروق وأمه ، واحتدم النقاش بينهما ، ويأس فاروق وترك المنزل لأمه وزوجته وأولاده ، وأحست أمه بالندم كثيراً على تعنيفها له ، وقررت أن تعتذر له وتصالحه فور عودته، فقد خابت ظنون الجارتان ومعتقداتهما كثيراً، ولكن هناك طباع لا تخرج إلا بطلوع الروح ، فلم يسلا النميمة ، ولكن هذه المرة اتخذت الأمسية طابع الاقتداء والحكمة ، فقد تذكرا سماح جارتيهما التي رحلت منذ زمن عن الحي ..

وكم كانت سماح هذه مثالاً للمرأة المهذبة ذات الخلق الرفيع ، ولكن كان كل ذنبها أنها لم تنجب إلا إناث ، ولم يتقبل زوجها هذا القدر ، فكان زوجها دوماً يتحرق شوقاً لإنجاب مولود ذكر ، وكان السائد في تلك الفترة أن مسألة إنجاب الذكور أوالإناث يتوقف على

النساء ، فلطالما تسمم بدنها من كلماته الجارحة ، وعانت اضطهاداً وتقليلاً بالغاً...

وسيطرت تلك الفكرة التي لا أساس لها على رأسه ، وصمم أن يتزوج بأخرى تنجب له ذكراً ، وتحدث إلى زوجته عن نيته هذه، فلم تملك أم البنات غير التظاهر بالرضاء ، وهو بالمقابل قام بجلب الهدايا ، وتنفيذ رغباتها إرضاءاً لها ، وإن كانت أكثر الهدايا فخامة في العالم ، لا تغني زوجة عن بقاء زوجها لها وحدها ..

وبعد عدة ترشيحات من أم الزوج وأخواته ، وقع الاختيار على فتاة يقع بيت أهلها على الضفة الأخر لنهر النيل ، وعندما استعد ليذهب ويطلب يدها ، ركب القارب وإذا بسنة تأتيه ورؤية سريعة تراود منامه ، حيث أنه سمع صوت يحدثه ؛ ويقول: « عد فظهرك كله إناث. »
فإذا به يصاب بحالة فزع ، بعدما استفاق من غفلته هذه ، ويلف عائداً إلى زوجته - أم بناته ، فكأن القدر يحمل رسالة مستقبلية تحذيرية تنطق : «مهلاً لا تحايل على القدر».
ويشاء القدر بعد أن سلم الزوج لقضاء الله ، رزق الله زوجته وأنجبت هذه المرة مولود ذكر ، فغمرته الفرحة وعاد زوجها يتصرف بحب من جديد ، فكأن حب الزوج لزوجته مرهوناً بنوع وجنس الطفل الذي ستنجبه فحسب..

وكَبُر الصبي الذي كان منقذاً للاضطهاد الذي لطالما عانت منه أمه، وقد تم تدليله كثيراً ، فنشأ فاسداً جاحداً ، أفسده المال

الكثير وعدم تحميله أي مسئولية ؛ مقارنة بشقيقاته الفتيات ، فلجأ إلى أصدقاء السوء ومن ثمّ عرف طريق المخدرات ، وأصبح من مدمنيها ، وأصبح ما يأخذه من أبويه لا يكفيه ، وكما نعلم الإدمان وما يفعله الإدمان بالإنسان ، يجعله يسرق وينهب ويتلفظ بألفاظ بذيئة ، ويهين أهله بدون وعي ، المخدرات كما نعلم تذل من يتعاطاها وتحقر من شأنه ..

وكثرت الفضايح بسبب هذا الصبي ، وحتى شقيقاته تعطلت زيجاتهن نظراً للسمعة السيئة التي خلفها عن أسرتهن ذلك الأخ المدمن ، ففضلن الرحيل عن الحي ، وبحثن كلهن عن عمل من أجل لقمة العيش ، لاسيما بعد أن بدد ذلك الصبي المستهتر ثروة أبيهم ، ذلك الأب الذي لم يتحمل كثيراً وقد أصيب بخلطة ، لم يمكث بعدها بفترة طويلة ثم وافته المنية ..

فقد استرجعتا الجارتان ذكرياتهما عن جارتيهما القديمة سماح ، وكم عانت في زواجها ، ولكن انتهت أمسية النميمة الخاصة بهما بخبر غير سار ، أغلقت لأمر اضطراري ؛ حيث الفاجعة الكبرى ...

الفاجعة الكبرى

وكأن القدر يريد أن يريح فاروق ، مما آل إليه حال أسرته ، فبعد أن اتخذ قرار الانفصال عن زوجته المهملة ودب الخلاف بينه ، وبين والدته التي لا ترغب في ذلك ، وحاول فاروق إقناعها لكنها لم تقتنع ، فثار غضبه وجنونه واتهم والدته أنها لطالما تحكمت به ، وسيطرت على حياته ، وكأنه ليس بابنها ، وفعلت به ما لم يفعله عدوبه ..

ورغم ندم الأم على قسوتها وتعنيفها وتقريرها الاعتذار له ومصالحته فور عودته ، ليس أثناء النقاش ، وكأنها قد نسيت أن الأعمار بأيدي الله ولا أحد يضمن عمره لثانية واحدة فيما بعد ، فقد نزل فاروق ودموعه قد كفت عيناه لم يشتر أحد خاطره ، لم يعتد أحد بحزنه ويتفهمه ، وإذا به يقطع الطريق صدمته سيارة، وحاولوا اسعافه لكنه لم ينجو، فلم يلبث وأن مات ..

وما شعور أسوأ من شعور أم ثكلى نادمة ، فقد التصق الشعور بالندم والحسرة مع الشعور بالحزن لدى أم فاروق ، وأحست أن الموت أهون عليها من عذاب فراق ولدها وفلذة كبدها ، وبعد

انتهاء العزاء كادت الحسرات تأكل قلبها ، فأدركت كم كان يُعاني فاروق في حياته ، أدركت كم ظلمته بتعنتها وتعسفها لقراراتها ، وتدخلها الذي خراب وتدمير حياته ، فلم يذق طعماً للفرح منذ أن سلبته حبه الوحيد – علياء – وحملته على تلك الزيجة الفاشلة.. وأرادت الجدة أن تعوض أبناء فاروق ، فتولت مسئوليتهم وكافة شئونهم ، ولكن عانت كثيراً مع أرملة ولدها ، وأدركت أن أحفادها قد ظلموا أيضاً جراء تصرفات تلك الأم الجاهلة ، فلم تمكث يوماً في منزلها بعد وفاة زوجها ، وكانت تخرج للسوق ، فكان جهلها يمتد لدينها أيضاً ، فلم تعي أنها هناك عدة للأرملة ، يجب عليها أن تمكثها بالمنزل منعاً للشبهات وحفاظاً على حقوقها ...

والأسوأ على الإطلاق ؛ كانت تنام وتنسى مواعيد مدرسة أولادها ، كانت لا تراقبهم ولا تراعيهم في أي شئ ، وكانت مريضة بالتسوق والشراء تشتري ما يلزمها أوما لا يلزمها ..

وقد كان زوجها قبل منتصف الشهر يذهب للحسابات في عمله ليطلب سلفة ، فراتبه يذهب أغلبه هباءاً بسبب تلك الزوجة المسرفة ، ولكن أكثر ما يؤثر في النفس ، ويجعلها تعتبر وتتعظ، مشهد تلك المرأة بعد أن توفى زوجها إثر ذلك الحادث المشئوم، ورغم تولي أمه مصاريف أحفادها ، نجد أن لا شئ يكفي سد احتياجات تلك الأرملة المهملة ، فاضطرت إلى أن تبيع كل ما اشترته الأشياء التي تلزمها قبل تلك التي لا تلزمها ، وبسعر أقل من نصف سعرها الحقيقي ..

وكان موت فاروق فاجعة للحي كله ، فللموت حكمة لا يعلمها إلا الله ، ولكن كما نعلم الحياة لا تتوقف بموت أحد ، بل بالعكس تستمر ، وعلى وجه السرعة فقد نجد أن العزاء أوالميتم في أحيان كثيرة ، أصبح في مجتمعنا منصوباً ، وبجانبه عُرساً أوحفلاً قائماً ، دون مراعاة لشعور أحد ، فالحزن لم يعد بلبس الحداد الشرعي الإسلامي الأبيض ، أوحتى الأسود القبطي ، لم يعد الحداد بمنع النساء أنفسهن التزين ، ووضع مساحيق التجميل ، وتأجيل أي احتفالات ، بل أصبح مجرد منشورات تظهر على صفحاتنا الشخصية في المواقع الاجتماعية - الفيس بوك والواتس آب وغيرهما- الموت أصبح للكثير منا زوبعة تمر وتنتهي سريعاً ولا داعي للتفكير فيها أوالاعتبار.

أعابها الفقر

ذات يـوم تلقـت رهـف إتصـالاً مـن إحـدى صديقاتهـا القدامـى - نهـى، كانـت في حـيرة مـن أمرهـا في اتخـاذ قـرار مـا ؛ حيـث كانـت صديقتهـا تلـك تُعـاني مـن مشـكلة تشـبه مشـكلة رهـف فيـما مـضى كثـيراً ؛ حيـث أنهـا تلجـأ للـزواج للتخلـص مـن ظلـم الأب والأخ ، صحيـح أنهـا ليسـت يتيمـة الأبويـن مثـل رهـف مـن وجهـة نظـر الشـئون الاجتماعيـة ، لكـن حقيقـة الأمـر آراهـا لا تختلـف عـن رهـف في شـئ ، بـل إن أزمتهـا وحالتهـا النفسـية تفـوق في السـوء حالـة رهـف ، فكـما ذكـرت أبيـات الشـعر اليتيـم مـن لـه أبويـن تخـلا وظلـما ...

وفي الحقيقـة كانـت نهـى فتـاة مسـالمة للغايـة تربـت عـلى الطاعـة العميـاء ، وكانـت الفتـاة الوحيـدة في أسرتهـا فباقـي إخوتهـا صبيـان ، وخدمـة أي شـخص لوجـه اللـه كصديقتهـا رهـف ، ولكـن في مجتمعاتنـا التـي يملأهـا التسـلط ، رغـم تنازلهـا عـن أي أجـر مقابـل أي فعل حسـن؛ فهـي تنتظـر حسـن الثـواب مـن عنـد اللـه ، نجـد ذلـك الأب أوالأخ ، أوكلاهـما معـاً ، لا فـرق فنحـن في مجتمـع ذكـوري ، يسـتخدما سـلطتهما بشـكل زائـد عـن الحـد تجـاه تلـك الفتـاة المطيعـة ، فيقومـوا بإيقاظهـا

مـن نومهـا ، باسـلوب فيـه نـوع مـن التقليـل مـن شـأنها، لمجـرد أنهـم يـروا أن خدمـة الرجـال واجـب فـرض عـلى أي فتـاة ؛ حيـث يتكاسـل أغلبهـم عـن إعطـاء نفسـه كوبـاً مـن المـاء لـكي يـشرب ، ويقاطعوهـا أثنـاء المذاكـرة ، ومـما يثـير العجـب موقـف الأم أيضـاً ؛ فهـي تعتمـد عـلى ابنتهـا بشـكل زائـد عـن الحـد ، وتلقـي بواجبتهـا عـلى ابنتهـا المسـكينة .

ومـن ثـمّ زادت رغبـة نهـى فالـزواج هربـاً وفـراراً مـن ذلـك القهـر ، وبـدأت تتعلـق بـأي أمـل يقربهـا مـن مرادهـا ؛ حيـث كانـت تعمـل في كبائعـة في أحـد محـلات الفسـاتين ، وكانـت هنـاك سـيدة مسـنة ثريـة تتعامـل هـي وبناتهـا مـع المحـل التـي تعمـل بـه نهـى عـلى الـدوام، فكانـت إحـدى بناتهـا زميلـة لنهـى في الدراسـة وتعـي أخـلاق نهـى جيـداً ..

وتعجلـت تلـك السـيدة وبناتهـا في التلميـح لتلـك الفتـاة المغلوبـة عـلى أمرهـا ، برغبتهـا في تزويجهـا لابنهـا ، ذلـك الفتـى المدلـل ، الـذي لم تـرض بـه أي فتـاة في عائلتـه نظـراً لسـوء أخلاقـه ، وعصبيتـه الزائـدة والتـي قـد تصـل لدرجـة الجنـون الـذي لا يحتمـل ، فـأرادت أمـه وأخواتـه أن يزوجـوه مـن نهـى ، لعـل اللـه يهديـه ..

فتعمـدت تلـك المـرأة ، لقـاء ابنهـا بتلـك الفتـاة وكأنها الصدفـة ، وإذا به يسـتخف بالفتـاة ، وينظـر لهـا بـإزدراء وأنهـا شـئ عـادي، وذلـك لمجـرد أنهـا بسـيطة فقـيرة لا تمتلـك إلا الثقافـة والنبـوغ العقـلي ، وتعمـل كبائعـة في محـل ، فلـم تجـد عمـلاً بمؤهلهـا الـدراسي ، فلجـأت للعمـل

كبائعة بمحل ، ولم تجد غضاضة في عملها هذا ؛ مادام أن عملها هذا شريفاً ومادامت تستيع من خلاله أن تشارك ولوبالقليل في سد احتياجات أسرتها ، ولكنه كالكثير من الشباب يبحث عن المظاهر الخداعة ، والجمال الصطنع الناجم عن مساحيق التجميل والتبرج ، لم تعجبه براءة وجه نهى وعدم تبرجها ، ولكن خطأ الأم وتعجلها والمؤسف أيضاً في الأمر أن الفتاة عاشت على أمل أن يُقدرها شخص في نفس وضعه المادي والاجتماعي ..

وبعد أن أدركت نهى عدم تقبل ذلك الشاب ، فكانت بين أمرين؛ الأول : أن تتزوج من شاب أمي يعمل كصبي في أحد الورش الخاصة بتصليح السيارات ، أوتتزوج من الثري العربي الذي ترغب أسرتها من التربح من وراء تلك الزيجة ، وتواجه مصيراً مجهولاً في بلاد الغربة ..

صديق رحيم

وبمرور الوقت يتعامل رهف ورحيم باعتيادية ، فتوكلا على الله وتركا مشكلاتهم للوقت إلى متى أن يشاء الله ، فالوقت كفيل بأن يُعالج مشكلات عديدة ، وكان ينشأ بينهما حوار بين الحين والآخر، فقد عادت صداقتيهما من جديد ، تبشر بأنه يمكن لحياتهما الزوجية أن تباشر وتمارس بشكل طبيعي فيما بعد..

وذات مرة كان رحيم عائداً من عمله ، وبعدما جهزت له رهف الغداء ، وأثناء تناوله الطعام ، حكى لها عن صديقه الذي قابله اليوم ، وكادا العجب والحيرة يقتلاه ، حيث روى له قصته مع – سما أخت حسام- التي لم تنفك عن ملاحقته في الماضي ، وعندما استجمع قوته ، وجمع كل ما يملك من شجاعة ومال من ليالي الكد والعرق ..

واستعد وتأهب لطلب الزواج منها ، فإذا به يذهب إلى بيتها وفي يده من خيرات الله ، وقد لبس أبهى حلته وتأنق ، وقام بتحذير أهله من أي قول غير لائق ؛ فهولا يريد إلا أن يجعل عروسه

متفاخرة به وبنسبه أمام أسرتها ، ولكن الرفض كان مفاجأة ، فقد كان من قِبل العروس !

ولم يعرف السبب حتى ، وقد عجز رحيم أيضاً ، رغم علاقاته الكثيرة مع الفتيات في السابق عن تفسير رد الفعل الغريب هذا ، فقد كاد أن يُصاب صديقه بالجنون ..

ردت رهف : لا أحد يعرف بالفعل ماذا يدور برأس الفتيات قليلات الخلق عديمات المبدأ ، لا أدري هل كثرت في زماننا هذا تلك النوعية من الفتيات اللاتي يعدن الشباب ثم يخلين بوعدهن!! وذلك بالتأكيد مهما تعددت الأسباب فهناك سبب واحد ثابت يحلل تلك التصرفات الشاذة من تلك الفئة؛ ألا وهوإرضاء الذات أوتحريك شاب آخر تريده أن يتقدم لخطبتها ، فلطالما أذاقت سما ووالدتها المرار لسمر المسكينة حتى تمكنا من إفساد العلاقة بين سمر وحسام ، فلم يعدا كما كانوا يوماً... كان الله في عون صديقك هذا، لكن عليه أن يعود لممارسة حياته بشكل طبيعي ويبحث عن حب جديد يليق به ..

فرد رحيم مسرعاً : أصبتي يا رهف .. فلا داعي للبكاء على اللبن المسكوب ؛ فعماد صديقي يستحق حب جديد جدير بوفائه ونقاء قلبه ، رهف ! ممكن أن تساعديني في إيجاد فتاة مهذبة على خلق، يتعرف إليها عماد ومن ثم يتزوجها وينسى ، معدومة الضمير تلك ..

فسرعان ما تذكرت رهف صديقتها نهى ، وكم أنها تستحق شخص قويم وفي مثل عماد صديق رحيم ، فقالت له حسناً ! أترك لي الأمر

وبـإذن اللـه سـيبقى الأمـر عـلى مـا يـرام ..

اعتلـت البسـمة وجـه رحيـم وأخـذ يسـتغل الموقـف كعادتـه ، آخذنـاً في ملاطفـة رهـف محـاولاً اسـتمالة قلبهـا ، بترديـد عبـارات ؛ مثـل : شـكراً يـا حبيبتـي .. مـاذا كنـت أفعـل لـولم تكـونِ في حيـاتي ! ، وأشـعر أننـي أكـثر الرجـال حظـاً في هـذا العـالم ...إلـخ ، وكالعـادة تنصـت رهـف وتتصنـع عـدم الاكـتراث ..

وبمجـرد شروق الشـمس رفعـت رهـف سـماعة الهاتـف لتطلـب نهـى ، وتخبرهـا بشـأن عـماد ، فتنفسـت نهـى الصعـداء وأخـبرت رهـف أن لا مانـع لديهـا مـن مقابلتـه والتعـرف إليـه ، لعلـه خـير ولعلـه خلاصـاً لهـا مـن قهـر وظلـم أسرتهـا ، وقالـت لهـا رهـف أنهـا تنتظـر قـدوم رحيـم ليحـدد كيـف سـيتقابلا ..

عـاد رحيـم للمنـزل ، يحمـل خـبر سـعيد بشـأن تقـدم شـاباً لخطبـة سـارة أختـه ، وتـم تحديـد ميعـاد لحفـل الخطوبـة ، وبعـد أن هنئتـه رهـف ، أخبرتـه عـن محادثتهـا مـع نهـى ، وأنهـا تـرى أن خطبـة سـارة خـير مناسـبة لتلاقـي والمقابلـة بـين عـماد ونهـى بالنسـبة أن هـذه هـي أول مـرة يتقابـلا فيهـا ، رد رحيـم : حقـاً يـا عزيـزتي هـذه طريقـة مناسـبة ، وستسـاعد في رفـع الحـرج كثـيراً ، خاصـة أن شـخصيتا عـماد ونهـى تتسـما بالخجـل الشـديد ...

يوم الحفل

وبعد أن عاونت رهف العروس – سارة أخت رحيم - عادت إلى منزلها مسرعة لكي تستعد هي الأخرى لحضور الخطبة ، وتأنقت كعادتها ؛ فمن المعروف عنها رقتها وذوقها المتميز في اختيار ملابسها ، بينما كان رحيم منذ الصباح الباكر في منزل أهله ، يُشرف على ترتيبات الحفل ، وقد إتفقت معه رهف أن تُقابله في المساء أثناء الحفل ..

وبدأ الحفل وكان رحيم يقف مع أصدقائه يستقبلون الحضور، وبينما كان مشغولاً في الحديث في الهاتف ، قام أحد أصدقائه بلمزه في كتفه ، وعلا صفير الشباب فجأة ، وكالعادة يعلوصفير أي حشد من الشباب لاسيما عند رؤية فتاة جميلة تمر أمامهم ، فأنهى رحيم مكالمته وانتبه ..

وعندما دقق النظر اكتشف أنها رهف زوجته ، فأصابته غيرة شديدة فصاح في وجه أصحابه ، وأخبرهم ؛ قائلاً : أتعرفون من هذه أيها الحمقى ! إنها رهف زوجتي ! ثم ذهب مسرعاً إلى رهف

ممسـكاً بيدهـا ..

وظـل جالسـاً بجانبهـا عـلى نفـس الطاولـة طـوال مـدة الحفـل ، وكأنـه يخـشى أن يخطفهـا أحـداً منـه ، وهـي غـير مدركـة لمـا يحـدث ولمـا يتـصرف هكـذا ، فلطالمـا كان جـمال رهـف يكمـن في عـدم شـعورها بكـم هـي جميلـة حقـاً..

وبينـما كان عـماد ونهـى يتبـادلا نظـرات الخجـل ، فقـد هبطت نسـمات القبـول عـلى قلبيهـما ، ثـم أخـذا يتبـادلا أطـراف الحديـث وكأنهـما يعـرف بعضهـما البعـض منـذ زمـن طويـل ، وقـد اكتشـفا أنهـما يشـتركا في العديـد مـن الصفـات..

وكانـا رهـف ورحيـم ينظـرا مـن بعيـد إليهـما ، ونظراتهـما تملؤهـا الفرحـة العارمـة بحـب الخـير وصفـاء قلبيهـما ، في حـين أن سـما أخـت حسـام تنظـر بعـين النـدم والحـسرة لفقدانهـا عـماد ، الـذي قدرهـا واحـترم وعـده لهـا ، فقـد تخـلى عنهـا ذلـك الشـاب الـذي اسـتخدمت واسـتغلت مشـاعر عـماد لتحريـك مشـاعره ..

ومـا أن انتهـى الحفـل عـاد رهـف ورحيـم ، وكأنهـما شـخصين مختلفـين، وكأن لا خـلاف بينهـما ولا إتفـاق ، وأصبحـا زواجهـما حقيقيـاً تسـوده الحميميـة ومشـارعر التفاهـم والحـب الحقيقـي ..

وكذلـك عـادا الحبيبـان الجديـدان نهـى وعـماد ، كل منهـما إلى منزلـه ، تعـج قلبيهـما فرحـة وبـشرى تعـوض صبريهـما ، وتضـع نهايـة لقصـص

الحـب الفاشـلة في حياتهـما ..

الخاتمة

وهكـذا آلـت الأمـور ؛ ففـي تلـك الليلـة – بعـد انتهـاء حفـل خطبـة سـارة أخـت رحيـم – تلـك الليلـة التـي كانـت بمثابـة حـداً فاصـلاً لبعض العلاقـات التـي تناولناهـا ، فبينـما اتخـذت حيـاة رهـف ورحيـم، ونهـى وعـماد ، مسـارين سـعيدين في حياتهـم ، كان الاسـتاذ يحيـى هائمـاً في ذكرياتـه يبـكي عـلى الأطـلال ، الـذي جعلـه يتوهـم ويتخيـل الحـب تجـاه أي فتـاة أوامـرأة تشـبه حبيبتـه سـميرة ، يتخيـل حيـاة داخـل عـالم الأمـوات ، يعيـش مـع زوجـة لا تهتـم لأجلـه ويعتبرهـا أنهـا هـي مـن ماتـت وليسـت سـميرة ، فقـد فضـل الخيـال عـلى واقعـه ..
وبإلقـاء نظـرة أخـيرة عـلى حيـاة حسـام ، نجـده نادمـاً عاجـزاً عـن معالجـة الـشرخ الـذي أحدثـه هوووالدتـه بعنصريتهـا المبالـغ فيهـا، في علاقتـه بزوجتـه سـمر ، فأصبـح يعيـش هـي وهوعلاقـة عـلى المحـك، لمجـرد تربيـة ابنتيهـما ..

وأم فـاروق تلـك الأم الثـكلى الـذي أطـاح بهـا الحـزن ، وأخـرس لسـانها، فلـم تعـد قـادرة عـلى عقـد أمسـيات النميمـة مـع جارتهـا أم حسـين ، ولم يعـدا يذكـرا قصصهـما المعتـادة ؛ مثـل : قصـة سـماح - أم البنـات

جارتهما القديمة - التي عانت من اضطهاد زوجها ، ورهن استمرار حبه لها ولبناته ، حتى أنجبت له الصبي ، والذي كان فاسداً ، أضاع كل شئ وجعل أمه وأخواته البنات يتوحلون أكثر فأكثر في الضياع والسمعة السيئة ، وبدأن شق طريقهن إلى الشقاء ..

وظلت حالة الجراح تسود حياة أيمن الأخ الأصغر لسمر ، وحبيبته حسناء ، اللذين فرقا بينهما التدقيق المادي غير المبرر والتعسف، والتمسك بالتوافه من أم حسناء ، وانصياعهما للآراء الهدامة التي تضطهد أي شاب يتزوج بأقل الإمكانيات ، ورغبة كل منهما في نصرة أهله على أهل الآخر ..

ونسمة تلك الفتاة اللعوب ، التي باعت من قدرها وأعطها قدراً أكبر من قدرها – حسن ابن عمها ، وكانت حُجتها قلة كلامه وعدم إتقانه لكلام الحب والمشاعر، رغم أنه كان يحترف التصرف باحترام وحب حقيقي ، واتهمته بالتعقيد وأشاعت ذلك عنه ، تلك الفتاة فقد سلكت طريق العهر وامتزجت به – ضحية البُخل والجهل والحقد - ..

وأما عن والدة عمر التي تعيش أسعد لحظاتها وتستمتع مع زوجها ذلك الشاب صديق عمر ، كان الكل يترقب أن تفشل هذه العلاقة ، بسبب الفارق الكبير في السن بينها وبين ذلك الشاب ..

وعلي الشاب القزم ، والأبناء الثلاثة «أسرة العم بهجت»، أسماء الطويلة النحيفة ، وفاطمة السمينة ، وأخوهم وحيد الأصلع أبناء العم بهجت – بحسب ما يصفهم المجتمع الجاهل ، مازالوا

يسـمعون كل يـوم عبـارات السـخرية ، التـي جعلتهـم يكفـرون بالحـب ويخشـونه كثـيراً ..

ولم ننـس سـما أخـت حسـام التـي تتلاعـب بالمشـاعر ، فظاهريـاً هـي فتـاة متعلمـة ومـن عائلـة محترمـة ، ولكـن تتـصرف بأخـلاق العاهـرات، وفي النهايـة لم يبـق لهـا سـوى الحـسرة والنـدم ..

وفي الختـام لاحظنـا بدرجـات متفاوتـة ، كـم خربـا العنصريـة والاضطهـاد أغلـب علاقاتنـا ؛ بـل كـم قتلـت العنصريـة مشـاعر الحـب بداخلنـا، فليـس في زماننـا عيـب تسـبب في فسـاد مجتمعنـا والحب فيـه ، فالعيب الحقيقـي يكمـن بداخلنـا ، فرسـالتي الأولى والأخـيرة دائمـاً وأبـداً : « لا تفتـح للعنصريـة ذراعيـك ، ولا تـردد كلماتهـا وتـروج لهـا ، ذلات اللسـان المحملـة بالعنصريـة تلـك ؛ هـي معـبر سريـع لجهنـم ، داعيـة لـكل فسـاد ، فكـم نفتقـد الكلمـة الطيبـة التـي تجعلنـا نتحمـس لإرضاء بعضنـا البعـض ، الكلمـة الطيبـة التـي تحفـز قيـم الخـير في دواخلنـا ؛ وكـم أعاقـت وبنيـت الكلمـة الخبيثـة سـداً منيعـاً وحاجـزاً للتواصـل ، فكـم مـن مـرة أشـعلت الكلـمات الجارحـة نـيران الكـره والانتقـام ، وكـم مـن مـرة دعـت للحـرب ..

أيا مَن تقرأ روايتي هذه ...

أرسل إليك سلامي وتحياتي ، رغم جهلنا لبعضنا البعض ، بنية صادقة أُلقي السلام ، وأرجوأن يعم السلام ، ليس بالكلام فقط ، وليس بيني وبينك فحسب ، ولكن بيننا وبين كل البشر على اختلاف أنماطهم وعروقهم وأشكالهم ، رجاءاً أجعل عندك حداً ونهاية تقف عندها كل كلمة تحمل في طياتها عنصريةً أواضطهاداً ، فمَن منا قد خلق كاملاً ، ومَن منا يستطيع تحمل وزر المعابة فيما صنع الخالق ، ولا تدعوا أفكار الاحتلال تسيطر علينا أكثر من ذلك ...

والحمدلله دائماً وأبداً

التعريف بالكاتبة

الاسم: مها محمدالمصطفى المقداد أحمد أمبدة ..

الشهيرة بـ مها المقداد

محل الميلاد: ٢٦ عاماً، من مواليد القاهرة، في السابع من أكتوبر لعام ١٩٩١م .

الجنسية والأصل: سودانية الأصل؛ حفيدة أحد أمراء الحركة المهدية بالسودان؛ وهوالأمير أمبدة (مبدئ)، أما عن أصولها في مصر ترجع لجد والدتها الحاج أبوالقاسم توسكى - أحد أعلام التجارة بين مصر والسودان ، وأول من عبر الطريق البري حلايب وشلاتين بشحنة من الإبل - وتحمل الجنسيتين السودانية والمصرية ..

الشهادات العلمية: تخرجت من كلية الآداب - قسم تاريخ - جامعة القاهرة ٢٠١٢م .

تدرس بأحد مدارس علوم القرءان وتسعى للحصول على الإجازة في تلاوته.

الهوايات: الكتابة والرسم، وأعمال الديكور، والطبخ .

الأعمال السابقة : تتراوح الأعمال بين النشر الورقي والإلكتروني، ظهرت من خلال المسابقات الأدبية وصدر تباعاً لذلك كتابين نشرا ورقياً عن دار « زحمة كُتاب » ؛ هما : « بنات مصر فضليات لا راقصات » سلسلة مقالات، و جهلاء بشهادات وعلة الجفاء الاجتماعي « مجموعة معالجة من القصص القصيرة والقصيرة جداً، وكتاب مقالي بعنوان «درب العهر» ، فضلاً عن هذه الرواية «فيتو».

أما في مجال الرسم فازت بالعديد من المسابقات الفنية أثناء فترة الدراسة, وقد تم نشر رسم كاريكتيري لها في مجموعة قصصية لكاتب سوداني.